

العدد الأول - أغسطس ٢٠١٧

كي لا يكون ابنك خانعًا

عبد الرحمن ضاحي

لماذا الشريعة؟

محمد وفيق زين العابدين

من الذي باع الأرض؟

نور عبد الرحمن

حاجة الثورات والمجاهدين إلى الابتكار

محمد إلهامي

بسم الله الرحمن الرحيم





أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر

فريق المجلة

المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
معتز زاهر

مستشارا التحرير
محمد وفيق زين العابدين
عبدالرحمن ضاحي

تصميم وإخراج فني
شادي عاطف
المدير الفني للوكالة المصرية لخدمات الدعاية والإعلان (أكتيف)
be.net/shadiatef

www.klmtuhaq.blog
  klmtuhaq

العدد الأول - أغسطس ٢٠١٧

تجمع نخبة من الكتاب والمفكرين



افتتاح الافتتاح

محمد إلهامي

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، الذي علمنا أن نقول الحق لا نخشى في الله لومة لائم، وأن نشهد به ولو على أنفسنا أو أهلينا أو الأقربين.

"كلمة حق" هكذا تخيرنا اسم المجلة، متيمنين بقول سيدنا إمام المجاهدين: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر". وإننا لنرجو أن تكون اسمًا صادقًا لمعنى شريف جليل، وأن تكون بين المجلات والأوراق امتدادًا لكلمات الحق التي لطالما صدحت في الآفاق، فاهتزت بها قلوب، وتحركت بها همم، وانكسر بها طغاة، ووُجِه بها غزاة!

وأول كلمة حق في "كلمة حق" أن نقول بوضوح وصراحة وشفافية بالغة لجمهورنا -الذي لم نعرفه بعدُ- كلمات هي بمثابة نية كانت مضمرة تتحول بهذا العدد إلى اتفاق ودستور مكتوب:

١. إن مجلتنا هذه صوت ثورة ضد الاستبداد، الذي هو أصل الشرور التي تعاني منها أمتنا في زماننا الآن، فالاستبداد المعاصر ليس كالاستبداد القديم قبل ظهور الدولة المركزية الحديثة، كان الناس قديمًا يديرون أنشطة حياتهم كلها بأنفسهم وبتنظيماتهم المدنية والحرفية وبروابطهم الدينية والعائلية والمهنية، وتحتكر السلطة مهمات الأمن والدفاع، فكان الاستبداد القديم إذا تغول طغى على الناس في بعض أموالهم وبعض حرياتهم وبعض دمائهم، لكنه لم يكن يفرض عليهم طريقته ونظامه وأفكاره، ولم يكن يسيطر على كل حياتهم وأدق دقائقهم، لم يكن يلزمهم بمناهج تعليم، ولم يكن يتحكم في وسائل إعلام، ولم يلزمهم بحياة اقتصادية يتحكم في أولها وآخرها؛ كما يفعل الاستبداد المعاصر المسلح بالقوة الهائلة الممنوحة له بنظام الدولة المركزية، ثم بالنظام العالمي الجديد.

لقد كان المستبد القديم يجور على الأمة، فإن جاءه الاحتلال جمع جيشه وخرج للجهاد، فإما استشهد وإما هُزِم بعد بذل الجهد، أما المستبد المعاصر فإنه رجل الاحتلال الأول وخط دفاعه الأول وممثل مصالحه الأول، وهو بعدما يشبع ويرتوي من شرب الدماء وأكل لحوم الناس يكون حين يطرق الاحتلال أبوابه أول من يستسلم لهم ويفر من أمامهم، أو ربما يستدعيهم هو لإسناده إن نشبت ضده ثورة، فيهرعون لإنقاذه.

لئن صح أن نقول قديمًا "الطغاة شرْط الغزاة"، فلا بد أن نقول الآن "الطغاة أول الغزاة، والغزاة ظهر الطغاة".

ولهذا فمجلتنا صوت ثورة على الاستبداد .. فالثورة روحها وحلمها وأملها وأفقها وشعارها! وكل ما هو ضد الثورة من فكر استسلامي أو انبطاحي أو تأجيلي أو هارب من موضوع الثورة؛ فإننا ننفر منه بمثل ما نتوقع أن ينفر منا.

٢. ومع هذا فمجلتنا ليست صرخة ثائر، بل هي وعي الثائر.. لن نهتم هنا بذكر المذابح والمجازر والمظالم، فهو باب يقوم عليه كثيرون غيرنا ونسأل الله لهم السداد، وإنما نهتم هنا بتقديم الوعي والمعرفة التي ينبغي أن يتسلح بها الثائر.. إن سنين أمتنا في القرن الأخير، وعلى الخصوص سنون الثورات الأخيرة تثبت لنا أن الأمة لا تعاني من ندرة في الشجعان والبواسل، إنما تعاني من فقر في وعي العاملين وقياداتهم، لكم كانت الدماء غزيرة والحصاد فقيرًا، بل لكم بُذِلت الدماء في المعارك الخاسرة التي حصد ثمرتها غيرنا.

مجلتنا هنا محاولة لتسليح الثائر الصارخ بالوعي الراشد، ومن هنا فإنها حَفِيَّة بالعلم الذي يسوق إلى العمل ويرشده وينضجه، وهنا يلزمنا أمران؛ الأول: أن نقدم العلم الصحيح العميق الذي نحسب أنه في باب المفقود، أو لنقل في باب المسكوت عنه، وهو ما يستدعي أن ننظر فيمن يكتب وفيما يُكتب، ولقد اجتهدنا أن نضع ونلزم أنفسنا بألا يُسطر في المجلة كلام سطحي أو تافه أو مكرور مشهور. والثاني: ألا نغرق في علم لا ينبني عليه عمل، فلن تكون البضاعة المعروضة هنا نزهة عقلية أو درسًا فلسفيًّا أو تحرير مسألة لا تهم الثائر في عمله.. بضاعتنا هنا بضاعة يحتاجها العاملون، ونرجو أن تكون مما يسر الثائرين.

٣. إن سائر من يكتبون في المجلة متطوعون، بل مجلتنا كلها قائمة على جهود تطوعية، ومع علمنا بأن الأمر التطوعي مهدد بطبيعته، وأن أي عمل ينبغي أن يتحول إلى منظومة، إلا أن الخيارات القائمة أمامنا الآن هي أن نبدأ بهذا المجهود التطوعي أو ننتظر أمدًا لا نعرفه، فكان الخيار هو البدء، وقد استجاب معنا عدد من الأفاضل الذين كتبوا لنا، فحبسوا من وقتهم وجهدهم ما كان حقه أن يُؤجروا عليه، ولكنهم فضلوا أن يجعلوها خالصة في سبيل الله، وكان أمامهم أن يجعلوها في أماكن أخرى فيجتمع لهم أجر في الدنيا مع أجر الآخرة إن شاء الله، فنحن نشكر لهم تضحيتهم تلك، والله خير الشاكرين.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل ويبارك فيه وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.



لماذا الشريعة؟

محمد وفيق زين العابدين

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [سورة النساء: الآيتان ٦٠، ٦١].

لم يكن الله عز وجل ليرتضي لعباده دينًا خاتمًا يبلى بمرور الزمن، فلا يكون قادرًا على حل مشكلاتهم أو يوقعهم في الحرج والمشقة، فقد أنزل تعالى على خاتم رسله شريعة كاملة في العقائد والعبادات والمعاملات كلها، وأمر عباده بطاعتها ولزومها، واعتبر التسليم المطلق بها والانقياد التام لها وسلامة الصدر تجاهها من القلق والاضطراب من شرائط الإيمان، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥]، وجعل من استنكر أو جحد أو رفض شيئًا معلومًا منها خارجًا عنها، فحقيقة الشريعة كما يقول ابن تيمية: (اتِّباع الرُّسل والدخول تحت طاعتهم، كما أن الخروج عنها خروج عن طاعة الرُّسل، وطاعة الرُّسل هي دين الله الذي أمر بالقتال عليه).[١]

ولو كان المُسلم حُر الإرادة يأخذ منها ما شاء ويترك منها ما شاء، لكان إحاطتها بشئون الإنسان كلها في السلم والحرب، في الوفاق والمنازعة، في العبادة والمعاملة ضرب من العبث، فهل تَسُنّ الدول القوانين لحمل

(١) أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني: مجموع الفتاوى، تحقيق عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (المدينة النبوية)، طبعة ١٤١٦هـ (١٩٩٥م)، ج ١٩ ص ٣٠٩.

الناس عليها أم لتخييرهم في الأخذ بها ولله المثل الأعلى؟!

إن غاية القوانين هي ضبط حياة الأفراد ومعاملاتهم داخل المجتمع في كل وقت، بحيث توازن بين مصالحهم جميعًا وتُحقق حدًا أدنى من السعادة لكل فرد فيهم، والشرع فضلًا عن سعيه لإضفاء هذه الفاعلية على العلاقات التي يخلفها النظام الاجتماعي من خلال الرقابة عليها أو إبطالها أو ترتيب النتائج عليها، يضمن لهم سعادة أبدية في حياتهم الأخروية.

والفارق الجوهري بين الشرع والقانون يكمن في أن الأخير لا يعدو أن يكون جزءًا من السلوك الإنساني وهذا مما لا يُجادل فيه أحد، ومشكلة النظام الاجتماعي متعلقة بالسلوك الإنساني في الأساس وتكمن في التوفيق بين الغايات الذاتية والغايات غير الذاتية لدى تصادمها وتعارضها، فالإنسان القانوني يسعى لحل مشكلته الاجتماعية بذات السلوك الذي تمخضت عنه المشكلة، وقد يوفق في هذا وقد لا يوفق، لكن التوفيق رهن استمرار الظروف الاجتماعية بنمط واحد، فالقانون لا يُمكن أن تستمر صلاحيته عبر الزمن إلا إذا انتقلت خلفيته الاجتماعية معه عبر الزمن[١]، وهذا مما يستحيل، ولذلك فالقانون نفسه الذي قد يصلح في حل مشكلة ما في مكان ما هو ذاته قد يتسبب في إحداث ذات المشكلة في مكان آخر نتيجة تغاير الظروف الاجتماعية.

أما الشريعة فلا ينتج عنها مثل هذا التناقض لأنها خارجة في الأصل عن السلوك الإنساني، أو بعبارة أدق: السلوك الإنساني فيها مقيد، فلا يأتيها العجز من بين يديها ولا من خلفها، لأنها شريعة إلهية سماوية ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، شريعة دائمة مرنة عامة تتسع لحاجات البشر في كل زمان ومكان مهما تعددت ومهما تنوعت وكيفما تطورت، لأنها من صنع خالق البشر الخبير الحكيم الذي هو صانع العباد ذاتهم وصانع سلوكهم الإنساني، فهو أدرى بهم وبأحوالهم وبما فيه صلاحهم، ولذلك نراها صلُحت لتحكم هذا السلوك وأدت فاعليتها في ضبط العلاقات الإنسانية لما يربو على ألف وثلاثمائة عام، وهو ما لم يتكرر في أي حقبة من حقب التاريخ، ومن أحسنُ من الله حُكْمًا لقوم يوقنون.

---

(١) يقول دياس أحد فلاسفة القانون الإنكليز وأشهر أساتذتهم في جامعة كمبريدج: «فقد يكون القانون غير صالح في زمن معين، ولكنه يُعتبر صالحًا في وقت أو زمن آخر، إذا كانت خلفيته الاجتماعية قد انتقلت معه». ~**دياس**: فلسفة القانون، ترجمة هنري رياض، دار الجيل (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ (١٨٨٦م)، ص ٨٣.

وينتج عن هذا أن نصوص القانون قابلة للإلغاء بطبيعتها، أما نصوص الشرع فهي غير قابلة للإلغاء، وغير قابلة للتجزئة فلا يجوز لمسلم أن يقبل بتطبيق بعضها وأن يترك بعضها، لأن مصالح العباد لا زالت متضاربة، ورغبتهم في ضبطها والموازنة بينها لا تنقطع.

وبرغم أنه لا مجال للمقارنة بحال من الأحوال بين ما شرَّعَ الله العليم الحكيم، وما قنن البشر القاصرة عقولهم، المحدودة أفهامهم، المشوبة بتسلط الهوى والشهوة، لا مجال للمقارنةِ بين شرعٍ رباني سماوي محكمٍ ثابتٍ لا يتبدل ولا يتغير، وبين قانونٍ وضعي بشري دائم التبديل والتعديل، ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا؟ لكن إدراك هذه المعاني الفارقة بين القانون الوضعي والشرع الآلهي من أهم ما يُمكن أن يُفهم به لماذا وجبت الشريعة ووجب تطبيقها، لا خيار في ذلك لحاكم ولا محكوم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٦]، ولا تَصالح على غير ذلك بين أفراد أي جماعة مسلمة، ومن أنكر وجوبها منهم فقد خرج عن الإسلام جملةً، وإن صلى وزكى وصام وحج وزعم أنه من المسلمين ما زعم.

ولذلك جعل الله من لم يحكم بما أنزل الله كافرًا وظالمًا وفاسقًا كل بحسب اعتقاده في الشرع، وهذا بنص القرآن القاطع الذي لا يحتمل أدنى تأويل، فإما تحاكم لله واتباع لرسوله صلى الله عليه وسلم، وإما تحاكم للهوى واتباع للأهواء، قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٠].

والرضاء بغير ما أنزل الله هو رضاء بالطاغوت الذي أُمر المؤمنون بأن يكفروا به، فطاغوت كل قوم ما عبدوه من دون الله أو تحاكموا إليه من دون الله أو اتبعوه على غير بصيرة من الله، ومن آمن بالله ليس له أن يُؤمن بغيره، ومن رضي بشرع الله ليس له أن يرضى بحكم ينقض حكمه ولو شرَّعته العوالم المتحضرة أجمع، أو قضت به أعلى محاكم الدنيا، إذ حكم القاضي وتشريع الهيئة الحاكمة لا يُحِلُّ حرامًا، وطاعة ولي الأمر مشروطة بألا تكون بمعصية الشارع الحكيم، بل لا ولاية لمن عطل أحكام الشريعة أو شرع ما لم يأذن به الله أو استباح المُجمَع على تحريمه بغير سند شرعي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ [سورة الشورى: الآية ٩]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» (١)

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧١٤٥/الأحكام)، ومُسلم في صحيحه (١٨٤٠/الإمارة) كلاهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بل إن السياسة العادلة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتطبيق الشريعة وإقامة نظم الحكم على أصولها، فكما قال شيخ الأزهر محمد الخضر حسين: «الأُمة الحرة هي التي تُساس بقوانين ونُظم تألفها، وتكون على وفق إرادتها أو إرادة جمهورها، فالشعوب الإسلامية لا تبلغ حريتها إلا أن تُساس بقوانين ونُظم يُراعى فيها أصول شريعتها، وكل قوة تَضرب عليها قوانين تخالف مقاصد دينها فهي حكومة مستبدة غير عادلة».[١]

فقانون أي أُمة هو مرآة أحوالها المادية والفكرية والاجتماعية، وإذا كان من المُفترض أن يكون القانون هو مصدر سعادة كل مجتمع ونهضته -كما يقول فلاسفة القانون[٢]- فإنه لن يكون كذلك إذا لم يحُقق متطلباتهم وآمالهم الثقافية والفكرية والمادية التي تُمليها طبيعة بيئتهم الدينية والاجتماعية[٣]، بل سيكون وبالًا عليهم، وسيكون مصدرًا لتعاستهم وشقاوتهم لا إسعادهم ونهضتهم، إذ كُل فرد أسير قيمه ومبادئه الدينية والاجتماعية، وهي أعلى عنده من أي تقنين وتشريع، وما يدفعه إلى احترام أي قانون عادل إلا عدالته، ولا يدفعه إلى انتهاك أي قانون ظالم إلا ظُلمه وجوره، لذا كانت ضرورة الرجوع إلى الشريعة ضرورة قصوى حتى لا تكون ثمَّة فجوة بين طبيعة واقع الأفراد الاجتماعي وبين القوانين التي تحكمهم.

ولا غرابة في النتيجة المشار إليها، ففي إطار الأخلاق ذاتها -فالمفترض أنها مبادئ عامة مثالية مجردة للسلوك الإنساني أعم من الدين- يذهب فلاسفة الأخلاق الوضعيون المنطقيون إلى أن السبب في تباين المجتمعات البشرية في السعادة يُعزى إلى الاختلاف في أخلاقها، ومن ثمَّ رغباتها ومن ثمَّ معتقداتها، إذ الأخلاق عندهم محاولة لتحقيق الرغبات الجماعية للجماعة وتأكيدها في نفوس الأفراد، وعلى الجانب الآخر هي محاولة الأفراد أن يجعلوا رغباتهم جزء من رغبات الجماعة، فهي عندهم في النهاية محض نزعات فردية وميول جماعية، وكلها ما هي إلا انعكاس للمعتقدات، ومن ثمَّ فالمجتمع الذي يتفق أعضاؤه على مجموعة أكبر من الرغبات من المرجح أن يكون أكثر توافقًا وسعادةً من غيره الذي تتعارض رغبات أفراده، فالمبادئ الأخلاقية في النهاية لا تنفصل عن مصلحة المجتمع وأفراده، وهذه المبادئ تعبر عن الشعور السائد إلى حد كبير في مجتمع معين حيال ما يصب عمومًا في مصلحة أكبر عدد ممكن، لذلك انتهى برتراند راسل أحد أشهر الوضعيين المنطقيين إلى أنه

(١) محمد الخضر حسين: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، المكتبة السلفية (القاهرة)، طبعة ١٣٤٤هـ ص ٢٤٤.

(٢) على سبيل المثال، يقول بنتام: «يجب أن تكون وظيفة القوانين هي تحقيق أعظم قدر من السعادة لدى أكبر عدد من الناس». **دياس**: فلسفة القانون، ص ٩٠.

(٣) يقول الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون Gustave Le Bon: «وإذا أردنا أن نعبرّ عن العوامل التي يخضع الإنسان لها في حركته تعبيرًا بسيطًا قلنا إنها ثلاثة أنواع: أولها وأشدها تأثيرًا عامل الأجداد، والثاني تأثير الوالدين، والثالث تأثير البيئة، وقد ظن بعضهم أن هذا الأخير هو أشدها فعلًا وهو في الحقيقة أضعفها، لأن البيئة وما يندرج تحتها من المؤثرات المادية والمعنوية التي تعمل في الإنسان مُدة حياته وعلى الأخص في زمن التربية لا تُؤثر فيه إلا أثرًا ضعيفًا، وإنما يعظُم أثرها إذا توالى بالتناسل زمنًا طويلًا، وعلى ذلك فالرجل ابن أمته دائمًا مهما كان عمله، ومجموع الأفكار والمشاعر التي يأتي بها أفراد كل أمة يوم يولدون هي روح تلك الأمة، وهي خفية في ماهيتها، لكنها ظاهرة ظهورًا كليًا في آثارها، لأنها هي الحاكمة في الحقيقة على تطور الأُمة». **غوستاف لوبون**: سر تطور الأُمم، ترجمة أحمد فتحي زغلول، تحقيق أسعد السحمراني، عدنان حسين، دار النفائس (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ص ٢٠،٢١.

من الحكمة أن يعمل النظام الاجتماعي في كل جماعة على توحيد رغبات أفراده، وتثبيط رغباتهم المتضاربة المتعارضة مع المصلحة الجماعية، عن طريق التعليم والنظم الاجتماعية المصممة لهذه الغاية.

إن فلاسفة القانون يقولون بأن المجتمع يعتمد ولابُد على القانون، وهذا خطأ بلا ريب، فالقانون هو الذي يعتمد على المجتمع، وعليه أن يُعبر عن المصالح والحاجات المشتركة لهذا المجتمع، وليس عن مشيئة فرد أو مجموعة أفراد يَفرضون مصالحهم الخاصة عبر قوانين يُلزمون بها باقي أفراد المجتمع بالقوة، وهذا هو الأساس الذي يستمد منه القانون شرعيته، وهنا تكمن القيمة الحقيقية للشريعة التي تعلو في مصدرها ومبادئها على جميع الأفراد.

فالعقول التي مُنحت للبشرية لتقودها لمعرفة ربها وللاهتداء إلى سبُل السعادة التي خطها لها، أصبحت وبالًا عليها حين حادت عن فطرتها الوظيفية، حين جحدت فضل الله تعالى عليها، وأنكرت حكمته، وبطرت حُسن تقديره، وأساءت الظن بتدبيره، فاستعاضت بقوانينه الكاملة قوانينها القاصرة، واستبدلت بشريعته المُحكمة شرائعها المُنحلة، فسبَحت بعجرفتها ضد تيار الفطرة السوية وهي تحسب أنها تُحسن صنعًا، ومضت بغرورها في دروب الانسياق لِبرَك الانحراف الآسِن، فبدلت نعمة الله كُفرًا وأحلَّت بأقوامها دور البوار، وتركها الله عز وجل لزيغها حتى تعلم مآل انقلاب العقول على بارئها، وعاقبة انتكاس فطرتها، لا من جهة العاقبة الدينية أو الأخروية فحسب، بل من جهة العاقبة المادية والمَغَبَّة الدنيوية في المقام الأول، فماذا جنت البشرية من القوانين الوضعية؟!

لقد أثبت الواقع بما لا يدع مجالًا للشك أن تطبيق هذه القوانين كان ولا زال هو أهم أسباب انتشار الجريمة وازدياد معدلاتها وتنوعها على نحو لم يكن في أسلافنا، وأن تلك القوانين لم تؤد دورها في الوفاء بمتطلبات المُتقاضين، وحل خصوماتهم، وفض نزاعاتهم.

فلا هي زجرًا حققت، ولا هي قضايا أنجزت، ولا هي حقوقًا لأصحابها سلمت، بل أدت الثغرات التي تملأ عباءتها إلى اللدد في الخصومات، والمماطلة في الإجراءات، وكثرة الاستئنافات، والامتناع عن أداء الحقوق والواجبات، وزيادة البغي والعدوان، وشيوع الفقر والبُؤْس والحِرمان، وإثارة الفوضى والهمجية، وبث روح الانتقام والثأر لدى المُتخاصمين.

إن أهم إفرازات الواقع ودلالاته عدم صلاحية العقل البشري لِأن يكون مصدرًا للتشريع، فالتاريخ يُثبت لنا يومًا بعد يوم أن بِنْيَة العقل ضعيفة وَهْنَة يسهُل غشها وخِداعها والاحتيال عليها، إذ يُمكن تزويد جمع من العقول بمعلومات خاطئة معيبة، أو إغوائها بضلالات فاسدة مُنحرفة، فتقع في الخطأ الفاحش بكل سهولة، وتنقاد للضلال البين بلا أدنى مُبالاة !

بل أثبت الواقع أن العقول مع اجتماعها قد تكون غير قادرة على البحث في الأدوات والأساليب والصفات وظواهر الحوادث وهيئات الناس ومظاهرهم، وعلى مقدار ما أَبْدته هذه العقول من براعة في التعامل مع كم الأحداث، فقد أَبْدت في المقابل عجزًا غير محدود في التعامل مع كيفها، وعلى قدر ما كان يُفترض أن تقوم به إذا تعاضدت مع بعضها من تفكير منطقي رشيد، فقد انزلقت في مهاوٍ وحفر التفكير العاطفي الانفعالي والخيالي الوهمي بلا أدنى حكمة أو بصيرة.

ولعل هذا ما يُفسر أن واحدًا مثل إدموند هوسول الفيلسوف الألماني الشهير مؤسس علم الظاهريات، بعد أن كتب آلاف الصفحات في فلسفات العقل والمنطق والظاهريات، انطلق يُحذر أوروبا من مخاطر منهجيتها العلمية والفكرية، ويُهاجم العقل مُتسائلًا في محاضرة له عام ١٩٣٥م؛ هل استقال العقل وفقد دوره في الحياة، أم أنه خلافًا لذلك كشف عن وجهه الحقيقي الانتهازي الماكر والنفعي؟!

إن مشكلة القوانين الوضعية ليست في درجة تحضُّرها ورُقيها، فمهما تفاوتت في ذلك ومهما ارتقت، فمصدرها النهائي هو العقل البشري الذي يحول قصوره دون الوصول إلى غاية الكمال التشريعي، لاستحالة خلوه من الهوى.

إن صلاحية أي تشريع تُقرر على أساس صلاحية قيمه ومبادئه وتجانسها مع الواقع، فالسياسة التشريعية الرشيدة يتعين أن تقوم على عناصر متجانسة مع البيئة التي تضبطها، فإن قامت علي عناصر متنافرة معها افتقدت الصلة بين النصوص ومراميها، بحيث لا تكون مؤدية إلى تحقيق الغاية المقصودة منها، باعتبار أن أي تنظيم تشريعي ليس مقصودًا لذاته، وإنما هو مجرد وسيلة لتحقيق أهدافه المتعلقة بضبط الحياة وإسعاد الناس.

وفي هذا الإطار تبرز محاسن الشريعة التي هي من وضع خالق العقول والأهواء عز وجل، الذي هو أعلم بأحوال عباده، وأدرى بما فيه صلاحهم وما إليه عاقبة أمرهم، والتي تفردت عن التقنينات الوضعية بسمات وخصائص تجعلها أجدر بالاتباع وأولى بالتطبيق، إذ لا تتحكم في سنها الآراء، ولا تعبث في وجهتها الأهواء، فلا يوجد فيها أية مبدأ معيب، أو حكم غير مصيب، والحقُّ أنه لا مجال للمقارنة بحال من الأحوال بين ما شرَّعَ الله العليم الحكيم، وما قنن البشر القاصرة عقولهم، المحدودة أفهامهم، المشوبة بتسلط الهوى والشهوة، لا مجال للمقارنة بين شرعٍ رباني سماوي مُحكمٍ ثابتٍ لا يتبدل ولا يتغير، وبين قانونٍ وضعي بشري دائم التبديل والتعديل، ومن أحسنُ من الله حُكْمًا لقوم يوقنون.



حاجة الثورات والمجاهديـن إلى الابتكار

محمد إلهامي

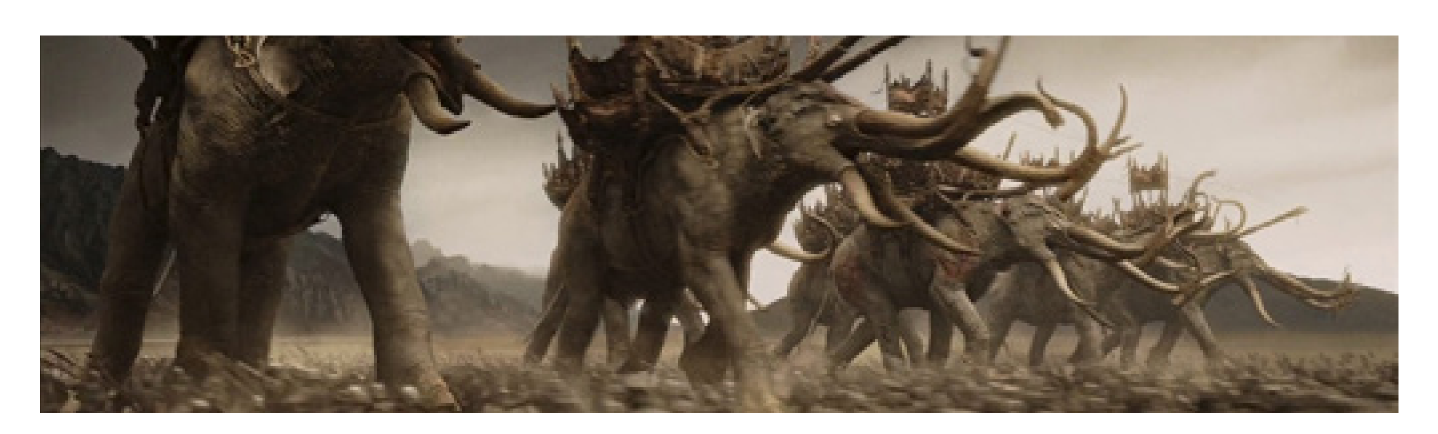
مما لا يأخذ حظه كثيرًا في العرض التاريخي للفتوحات الإسلامية أمر ابتكارات المجاهدين واختراعاتهم في ميدان الحرب والقتال، مع أنه من أهم الأمور التي ينبغي التعرض لها والتركيز عليها والاهتمام بها، فإن ابتكارًا واحدًا ربما غيَّر مصير المعركة، وربما كان مصير تلك المعركة هو ما تتحدد به مصائر الأمم والشعوب وخرائط الجغرافيا والتاريخ، فالمعارك هي السطر الأول والأخير في صفحة تاريخ كل أمة، فليس من أمة إلا وبدأت بحرب تأسيس أو تحرر أو استقلال، وليس من أمة إلا وختمت صفحتها بحرب سقوط وانهيار.

١. مواجهة الفيلة في القادسية

كان من أعظم المحن التي أتعبت المسلمين في فتوح فارس أن الفرس يقاتلون على الفيلة، ولم تكن خيول العرب قد شاهدت الفيلة من قبل، فكانت تنفر منها، وسلاح الفرسان هو السلاح الضارب في جيوش تلك الأيام، فكانت الخيل ترى تلك الكائنات الغريبة الضخمة الثقيلة فتنفر، فيتعطل سلاح الفرسان بجيش المسلمين، ولم يكن للمسلمين فيلة بالمقابل، ولا كانوا يعرفون كيف يعطلونها، فصار الأمر يمثل خللًا خطيرًا في حسابات المواجهة، فابتكرت عقولهم أربعة وسائل مبتكرة:

أولًا: هجوم نوعي

كان يُربط إلى الفيل تابوتان على جانبيه، يُحمل فيهما المقاتلون، وهما مرتبطان معا عبر ظهر الفيل، فحين يهجم الفيل على الجيش تَنْفِر منه الخيل والمشاة وترتبك الصفوف، فيستطيع المقاتلون على جانبي الفيل استغلال حالة الارتباك هذه ليطعنوا بالرماح تلك الجموع المتفرقة المختلة فتكون الخسارة مضاعفة: اختلال الصفوف، وخسائر في المقاتلين، ثم يأتي من خلفهم المشاة فيحصدون هذا الوضع بمزيد من إيقاع القتلى والجرحى. تفتقت عقول المجاهدين عن خطة مضادة، هجوم نوعي من فرق خاصة تهاجم الفيل من الخلف ومن الأجناب، فتكون مهمتها قطع الأحزمة التي تربط التابوتين عبر ظهر الفيل، فتسقط التوابيت بمن فيها من المقاتلين، فما إن يحدث حتى يهجم حملة الرماح على الفيلة بالطعن من بعيد بعد أن صاروا بلا مقاتلين، فيوجهونه برماحهم بعيدًا عن المسلمين.



أدت هذه العمليات لاختفاء الفيلة طوال اليوم الثاني من معركة القادسية الفاصلة، فلقد قضى الفرس يومهم في إصلاح التوابيت، ثم دعم الفرس المقاتلين على الفيلة بمقاتلين إضافيين للحراسة كي لا يتكرر الهجوم النوعي السابق، لكن الأمر جاء على عكس إرادتهم، فقد عطلت القوات الإضافية مساحة حركة الفيلة ومناوراتها، ثم إن الفيل صار يستأنس بكثرة ما حوله وهو ما خفَّ من توحشه وشراسته، ثم إن مقاتلي الفيلة صاروا متوجسين يهتمون بالدفاع أكثر من الهجوم. فساهم جميع ما سبق في خفض عمل الفيلة.

ثانيًا: برقعة الإبل

وتلك من بنات أفكار القعقاع بن عمرو التميمي، فقد فكر في أن يصنع بسلاح الفرسان الفارسي كما فعلوا بالمسلمين، فعَمِدَ إلى إلباس عدد من الإبل براقع كبيرة تجعل منظرها جديدًا، كأنما حيوان جديد دخل المعركة، ووضع حول كل إبل مبرقعة جنودًا تحميه وتصحبه في الهجوم، فنفرت خيل الفُرْس من الإبل المبرقعة ووقع لهم مثلما وقع في اللحظات الأولى لخيل المسلمين. وبهذا حُرِم الفرس من سلاح الفرسان أمدًا.

ثالثًا: فيل من الطين

وهذا ابتكار لجندي من المسلمين لم نعرف اسمه، وذلك أنه لما وجد خيل المسلمين تنفر من الفيلة قضى ليلته في بناء فيل من الطين، وصار يقرب فرسه منه حتى قضى الفرس معه طوال الليل فأنس به فلم يعد ينفر منه، فلما أصبح يوم القتال امتطى الرجل صهوة جواده وأقبل على الفيل فلم ينفر منه، فكان هذا مما حَثَّ خيول المسلمين على الثبات للفيلة، ونادى به الناس: إنه قاتلك (أي الفيل)، فقال لهم: لا ضير أن أُقتل ويُفتح للمسلمين.

رابعًا: دور المعلومات

وهو أخطر الأدوار، وقد قامت به القيادة الإسلامية، حيث نشط المسلمون في جمع المعلومات عن الفيلة ومقاتلها ممن أسلم من الفرس أو من العراب الموالين لهم، فظفروا بمعلومات ثمينة أهمها: أن الفيلة لا نفع منها إذا فقدت عيونها أو أشفارها. كما اكتشفوا أن فيلين فقط هما بمثابة القيادة التي تتبعها بقية الفيلة: الفيل الأبيض والفيل الأجرب. أرسل سعد بن أبي وقاص بالمعلومات إلى بني تميم (بقيادة: القعقاع بن عمرو التميمي وأخيه عاصم) ليتولوا أمر الفيل الأبيض، وأرسل إلى حمال بن مالك (أمير المشاة) والربيل بن عمرو وهما في مقدمة بني أسد أن يتوليا أمر الفيل الأجرب.



انطلق القعقاع وعاصم في فرقةٍ مهمتُها تشتيت قوات الحماية حول الفيل، ثم وضعا رمحيهما في وقت واحد في عيني الفيل، فرفع الفيل خرطومه فاستبقه القعقاع بسيفه فقطعه، فسقط على الأرض أعمى فقتل عددًا من مقاتليه، وأربك الجهة التي حوله فتسابقت إليهم كتيبة بني تميم.

وانطلق حمال بن مالك والربيل بن عمرو واستطاعا ضرب خرطوم الفيل وطعن عين واحدة منه، وأصيب الربيل بضربة حطمت أنفه من سائس الفيل إلا أنه أفلت منها، غير أن النتائج التي حققاها كانت أفضل، إذ إن الفيل الأعور عرف طريق هروبه من المسلمين فانطلق إلى الخلف يدوس صفوف الفرس ويخترقها فأطاعته بقية الفيلة التي هرعت وراءه حتى خرجت من المعركة وأهلكت من كان في توابيتها. بينما ظل الفيل الذي عمي تمامًا والذي ضربه القعقاع وعمرو لا يعرف أين يذهب فصار مترددًا بين الصفين، إذا قدم على المسلمين نخسوه بالرماح وإذا قدم على الفرس نخسوه بالرماح ولا يدري كيف يتحرك[١].

٢. عبور صحراء السماوة

أراد أبو بكر الصديق أن يدعم الفتوحات على جبهة الروم فأرسل إلى خالد بن الوليد (قائد جبهة الفتح في فارس) أن يصطحب نصف الجيش وينطلق إلى الشام، ومع دقة الموقف في الشام قرر خالد أن يعبر إليها من طريق سريع يوفر الوقت ويُدخله إلى عمق الشام، ولم يكن أمامه إلا عبور صحراء السماوة القاحلة بين العراق والشام، فلو سلك طريق الجنوب طال عليه الوقت وربما فاتته الفرصة، ولو سلك طريق الشمال لتعرض لمواجهات مع روم وأعراب في مناطق لم تفتح بعد. فكان قراره الخطير ومغامرته الجريئة بعبور صحراء السماوة، فكيف فعل في طريق خالية من الماء والطعام تمامًا لخمسة أيام؟!

قرر خالد أن يتزودوا من الماء لخمسة أيام، وأمر لكل صاحب خيل بقدر ما يسقيها، ثم أمر بتعطيش الإبل وحبسها عن الماء حتى كان آخر يوم قبل الرحيل فأطلق الإبل للماء فروت حتى امتلأت أسنمتها، ثم ربطوا أفواهها، فجعلوها كأنها مخزنهم للطعام، فإن احتاجوا ذبحوا الإبل فأكلوا منها ومزجوا ما في كروشها من الماء بالألبان في ضروعها، فكان هو طعامهم وطعام خيولهم.

وفي خمسة أيام قطع الجيش المسلم الصحراء فصار في عمق الشام قريبًا من دمشق، فتحققت المفاجأة الحربية للطرفين: المسلمين فارتفعت معنوياتهم والروم فازداد اندهاشهم، ومن هناك تولى خالد قيادة فتوح الشام وبدأ مآثره الخالدة[٢].

---

(١) أحسن ما رأيته في تحقيق شأن الفتوح كتب المؤرخ العسكري أحمد عادل كمال، فقد اجتهد في جمع وتحقيق المرويات حتى أخرجها صورة واضحة للمعارك الإسلامية، ولهذا أفضل في شأن المعارك العزو إلى كتبه لا إلى المصادر القديمة، وفيما نقلناه هنا من شأن القادسية، ينظر كتابه: القادسية، ط٩ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٩م)، ص١٢٢ وما بعدها. إلا أن وقعة صناعة فارس فيلا من الطين نقلناها من: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٤م)، ٢/٣٦٣.

(٢) انظر تفصيل القصة وتحديد المسار بدقة عند: أحمد عادل كمال، الطريق إلى المدائن، ط٦ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٦م)، ص٣٢١ وما بعدها.

٣. معركة ذات الصواري

بدأ المسلمون ببناء أسطولهم في عهد عثمان رضي الله عنه، لما تحقق أن تأمين الفتوحات البرية لا يتم بغير أسطول يصد الهجمات البحرية للأسطول البيزنطي العتيد على ساحل الشام، وأسرع المسلمون ببناء أسطول في مدن الشام ومصر، ثم خاضوا أول معاركهم البحرية مع أسطول الروم العريق (٣٤ هـ) عند ساحل أنطاليا. وكانت معركة فاصلة مصيرية، فالمواجهة بين مائتي سفينة للمسلمين أمام ثمانمائة سفينة بيزنطية، وعلى قيادة الروم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين بن هرقل بنفسه، والنتيجة ستحدد لمن ستكون سيادة البحر المتوسط!

مع شدة حرج المعركة ونتائجها كان المسلمون بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد ابتكروا فكرتهم الخطيرة: تحويل المعركة البحرية إلى معركة برية؛ حيث يستطيع فيها المجاهد المسلم تحقيق نتائج أفضل، لا نعرف بالضبط صاحب الفكرة، وحسبه أن الله يعرفه، والطريقة كالآتي: تهبط مجموعات خاصة من المسلمين تحت الماء فتربط السفن بعضها ببعض، فهي حين تربط السفن الإسلامية ببعض فإنها تحولها كجزيرة فسيحة تمنع أسطول الروم من النفاذ بينها واختراقها وتطويقها، فإن تم لها ذلك، ربطت ما استطاعت من سفن الروم بسفن المسلمين، وبهذا تحولت السفن إلى سطح بري أجبر به البيزنطيون على خوض معركة شبه برية فوق السفن.



وكان موقع المعركة بين خلجان وشبه جزر برية مما جعل فكرة ربط السفن تحصر حركة الأسطول البيزنطي، وهكذا استطاع المسلمون فرض أسلوبهم، واستطاعوا أن يحققوا نصرًا مبهرًا غير متوقع بالأسطول الإسلامي الوليد على الأسطول البيزنطي العريق، بل وتحققت أقوى نتيجة حربية في تاريخ المعارك الإسلامية الرومية حتى تلك اللحظة؛ إذ أصيب الإمبراطور البيزنطي قسطنطين بن هرقل. واستطاع المسلمون إخراج الأسطول البيزنطي لفترة من شرق البحر المتوسط؛ إذ اضطر الإمبراطور البيزنطي لنقل قاعدته البحرية لتكون في جزيرة صقلية[١].

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٥م)، ص٢١٧، ٢١٨؛ أرشيبالد ر. لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة: أحمد محمد عيسى، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ)، ص٩١، ٩٢.

الخلاصة

لا تشكو الأمة من ندرة في أهل البسالة والتضحية والفداء، ولكن تشكو من ندرة من يستطيعون ردم وتضييق الفجوة العلمية بيننا وبين عدونا، لا سيما وتلك الفجوة محروسة بالأنظمة المستبدة التي إن قُدِّمت لها اختراعات أو ابتكارات فأحسن ما يكون أن تهمله، وربما سجنت أو طردت صاحبه. إن الأمة تفتقر إلى الوسائل التي تجعل تضحية الفدائيين ذات ثمن وأثر ونفع، بدلًا من أن يذهبوا هكذا مجانًا.

لا تزال مشكلة الطيران تمثل تحديًا ضخمًا، فكأنها لأول وهلة كمشكلة الفيلة قديمًا، ولعل من سيبتكر وسيلة لمواجهته لا يقل أجرًا عن أجداده الفاتحين الأوائل، ومثلها مشكلة الطائرات بلا طيار، وأنماط الاتصالات ونقل البيانات والتشفير، ومن وارئها تلك الصواريخ بعيدة المدى التي تصيبنا من وراء البحار ومن قواعد بحرية، وقبل أيام جاءت أخبار باصطناع جنود آليين يعملون بتقنيات الذكاء الاصطناعي.. ولا يزال مسلسل التحديات طويلًا، وهو ما سيحتاج مجهودًا عسيرًا وصبرًا وجلدًا كبيرًا.

ولعل من فرص اليوم أن كثيرًا من المجهود يمكن أن يجري بعيدًا عن مواطن الخطر، فالحصول على المعلومات وتحليلها والبحث عنها يمكن أن يكون من أي مكان، بل ويمكن أن يشارك فيه أصحاب الأعذار ممن عفا الله عنهم من المشاركة بأنفسهم، فقد أوجب الله عليهم النصيحة لله ورسوله، فهم مكلفون بسائر ما يدعم الثائرين والمجاهدين، وبهذا يكتب لهم أجر الجهاد وهم في مأمنهم كما قال رسول الله عنهم: "لقد تركتم بالمدينة أقوامًا، ما سرتم مسيرًا، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه". قالوا: يا رسول الله! وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: "حبسهم العذر"[(١)].

وأما أصحاب التخصص من المهندسين والكيميائيين والمبرمجين ونحوهم، فهم أول المسؤولين الذين يتعين عليهم استعمال هذا العلم في إنقاذ هذه الأمة، فذلك دورهم الأكبر والأخطر، وهو بابهم الكبير بل لعله يكون الوحيد نحو الجنة في الآخرة وخلود الذكر الحسن في الدنيا، ويا له من شرف أن يكتب المرء اسمه في نفس السجل الذي كتب فيه اسم خالد والقعقاع والفاتحين العظام.

(١) البخاري ٦ / ٣٤ في الجهاد، باب من حبسه العذر عن الغزو، وفي المغازي، باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر.





دور العسكريين في التيار الجهادي المصري

م. أحمد مولانا

لم ينشأ التيار الجهادي في مصر على هيئة تنظيم موحد؛ بل تكون على شكل مجموعات متعددة تأسست بداية من عام ١٩٦٦ إثر إعدام سيد قطب، وتبنت معظم تلك المجموعات مبدأ الانقلاب العسكري كآلية للتغيير لأن «النظام الحاكم يحكم بالقوة والقمع ويسد أي منفذ للتغيير السلمي»[١]، فدفعت العديد من عناصرها للالتحاق بالجيش، ونجحت في ضم عدة ضباط ونظرا لتلك النزعة العسكرية للتيار الجهادي المصري برز بين صفوفه عدد من العسكريين الذين تركوا بصمات على مسيرة التيار من أبرزها:

أ - تطوير نظريات التغيير:

١- نظرية عبود الزمر

طور مقدّم المخابرات الحربية (عبود الزمر)[٢] نظرية التغيير بانقلاب عسكري التي تبنتها مجموعات الجهاد، فأضاف لها محور تكوين مجموعات مدنية تدعم الانقلاب لحظة وقوعه فوفقًا لعبود «الانقلاب العسكري لابد أن تصحبه تحركات شعبية مؤيدة له»[٣]، وظلت هذه النظرية تمثل مرتكزًا لإحدى أبرز الكتلات الجهادية، ألا وهي جماعة الجهاد[٤] قبل اندماجها فيما بعد مع تنظيم القاعدة.

---

(١) عبدالمنعم منيب، دليل الحركات الإسلامية المصرية، ص٧٨، مكتبة مدبولي، ط١. نقل منيب هذا التفسير لاختيار الانقلاب العسكري كاستراتيجية للتغيير عن نبيل البرعي، ومصطفى يسري، من مؤسسي التيار الجهادي بمصر.

(٢) عبود الزمر كان مقدمًا بالمخابرات الحربية، وانضم إلى مجموعة طارق الزمر عام ١٩٧٨، وتعرف على محمد فرج عام١٩٧٩.

(٣) عبدالمنعم منيب، التنظيم والتنظير، ص١١، مكتبة مدبولي ط١.

(٤) جماعة الجهاد تأسست نهاية عام ١٩٨٨ ببيشاور.

لم تظل أطروحة عبود مجرد حلمًا أو وهمًا، وإنما تم تنفيذها على أرض الواقع من خلال أحد أبرز قادة المجموعات الجهادية (محمد عبدالسلام فرج)، الذي اقتنع بأطروحة الزمر، واعتمد عليها في رسم مشروعه للتغيير الذي استند على محورين[١]:

الأول: تكوين مجموعات عسكرية من أفراد الجيش بغرض انقلاب عسكري.

الثاني: إعداد مجموعات مدنية تدعم الانقلاب العسكري لحظة وقوعه.

وفي تلك الآونة تصاعدت إجراءات السادات القمعية، فأصدر قرارًا باعتقال ١٥٣٦ شخصية عامة في سبتمبر ١٩٨١، وشملت قرارات الاعتقال عددًا من قيادات المجموعات الجهادية؛ مما جعل اغتيال السادات من أولوياتهم قبل أن يفتك بهم ويكرر معهم التجربة الناصرية مع الإخوان.

نجح محمد عبدالسلام فرج في ربط معظم المجموعات الجهادية[٢] بمخططه المتمثل في اغتيال السادات والسيطرة على مبنى الإذاعة والتلفزيون؛ لبث بيان يدعو الشعب لتأييد الثورة الوليدة بالتزامن مع مظاهرات يقودها الجهاديون بالميادين الرئيسية. ولم ينجح من المخطط سوى اغتيال السادات في ٦ أكتوبر١٩٨١، بينما حاول عناصر الجماعة الإسلامية السيطرة على مدينة أسيوط يوم ٨ أكتوبر تمهيدًا للزحف منها على بقية المحافظات، ولكن نجحت قوات الصاعقة والشرطة في السيطرة على المدينة عقب اشتباكات دامية.

٢- نظرية عصام القمري

صاغ الرائد بسلاح المدرعات (عصام القمري)[٣] نظرية مختلفة عن عبود الزمر؛ إذ اعتبر القمري أن إمكانية التغلغل في الجيش وتجنيد العديد من أفراده للقيام بانقلاب عسكري أمر صعب المنال، في ظل المتابعة الأمنية الدقيقة للعناصر الملتزمة دينيًّا بالجيش، وانتقد اهتمام الجهاديين بمواجهة قوات الشرطة، وتمثلت نظريته البديلة في تدريب بضعة مئات من الشباب الجهادي على استخدام الأسلحة وقيادة المدرعات والدبابات، ومن ثم الاستيلاء بواسطتهم على العاصمة والصمود فيها لمدة أسبوعين مما يؤدي لإنهيار النظام حسب تصوره، ولكن لم تجد نظرية القمري من يتبناها ويسعى لتطبيقها عمليًّا داخل مصر، ويمكن القول بأن نظريته تتشابه نسبيًّا مع نمط تنظيم الدولة الإسلامية في السيطرة على المدن بالعراق والشام.

(١) انظر: عبدالمنعم منيب، دليل الحركات الإسلامية، ص٨٧، ٨٨.

(٢) شاركت في أحداث ١٩٨١ مجموعة سالم الرحال، ومجموعة نبيل المغربي، ومجموعة الجماعة الإسلامية بالصعيد، مع بعض أفراد من مجموعة إسماعيل طنطاوي.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر: أيمن الظواهري، فرسان تحت راية النبي، ص(٦٨،٦٩)، ط. دار إشبيلية.

ب- تطوير المهارات العسكرية لأعضاء التنظيمات الجهادية

تبنت جماعة الجهاد[١] استراتيجية الإعداد لانقلاب عسكري مدعوم بمجموعات مدنية، ورفضت اعتماد أسلوب حرب العصابات؛ لأن «الطبيعة الجغرافية لمصر تجعل نشوء حرب عصابات فيها أمرًا غير ممكن»[٢]؛ فاعتمدت على استقطاب عناصر مدنية وتسفيرها إلى الخارج لإعطائهم دورات عسكرية وشرعية وأمنية، ثم إعادتهم للبلاد دون ممارسة أي أعمال عنف بانتظار التمكن من التغلغل في صفوف الجيش لتنفيذ انقلاب عسكري تدعمه المجموعات المدنية السابق إعدادها.

وقد ساهم العسكريون في تطوير مناهج التدريب والمهارات العسكرية لأعضاء الجماعة، وبالأخص في معسكرات التدريب بأفغانستان؛ إذ تطوع مقدم الصاعقة السابق (محمد أبو السعود)[٣] في قوات المارينز الأمريكية واكتسب منها خبرات واسعة، ثم انتقل إلى أفغانستان وأعطى دورات متخصصة لعناصر جماعة الجهاد وتنظيم القاعدة في العمليات الخاصة وحروب المدن والطيران بالشراع والغطس والاغتيالات والحراسات الشخصية، فضلًا عن تدريسه دورة (جنرالات حرب)، تتضمن كيفية إدارة القوات في المعارك وقراءة الخرائط وتنظيم الكتائب والسرايا والفصائل والجماعات، ووفقًا لشهادة مسئول القاعدة بشرق إفريقيا (فاضل هارون) فإن أبوالسعود هو من أدخل في قيادة تنظيم القاعدة التخصصات وإتقان العمل، بدلًا من العمل العشوائي.

كما استفاد تنظيم أنصار بيت المقدس في تطوير بنيته العسكرية من خبرات بعض ضباط الجيش المفصولين، مثل مقدم الصاعقة (هشام عشماوي) والمقدم (عماد عبدالحميد) والرائد (وليد بدر)[٤].

ج- تنفيذ العمليات الخطرة

١- حادثة الفنية العسكرية:

وفد إلى مصر عام ١٩٧١ الفلسطيني (صالح سرية) ليعمل موظفًا بالجامعة العربية[٥]، وأسس تنظيمًا جهاديًّا سعى لتنفيذ انقلاب عام ١٩٧٤، اشتهر بأحداث (الفنية العسكرية)؛ إذ سعى أفراد التنظيم من طلبة كلية الفنية العسكرية بمساعدة أعضـــاء التنظيم مـن المدنيين في الهجوم على الكلية والاستيلاء على الأسلحة

(١) أسست جماعة الجهاد مطلع التسعينات ثلاث معسكرات لتدريب عناصرها، بالقرب من جلال آباد تحت اسم (بدر- القعقاع- القادسية).
(٢) أيمن الظواهري، فرسان تحت راية النبي، ص ٩٣.
(٣) لمزيد من التفصيل عن دوره انظر: عبدالله فاضل هارون، حرب على الإسلام، ج١، ص(٣١٣-٣٢٨).
(٤) رائد جيش فصل من الخدمة عام ٢٠٠٥، شارك بالقتال في أفغانستان والعراق.
(٥) حصل صالح سرية على الدكتوراه في التربية، وعمل موظفًا بمنظمة التربية والثقافة والعلوم التابعة للجامعة العربية.

الموجودة بها، ثم التوجه لمقر اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي لمهاجمته وقت وجود السادات به، وفشل المخطط عقب اشتباكات محدودة، ونجحت قوات الجيش والشرطة في القبض على أفراد التنظيم والبالغ عددهم ٩٢ شخصًا[١]، من بينهم ١٦ طالب بكلية الفنية العسكرية وطالب واحد بالكلية الجوية و٣ عسكريين بينهم نقيبان، ورغم بساطة الخطة وفشلها إلا أن خطورتها تكمن في كونها أول خطة انقلاب إسلامي تدخل حيز التنفيذ[٢]، فضلاً عن رسالتها الرمزية برفض الحكم العلماني للسادات، رغم ما حققه من إنجاز عسكري وسياسي وإعلامي في حرب أكتوبر.



٢- اغتيال السادات

قام الملازم خالد الإسلامبولي رفقة ثلاثة من أفراد الجيش السابقين بتنفيذ عملية اغتيال الرئيس السابق أنور السادات في ٦ أكتوبر عام ١٩٨١، أثناء احتفالات ذكرى حرب أكتوبر، في عملية جريئة استغرقت ٤٠ ثانية فقط.

٣- محاولة اغتيال وزير الداخلية (محمد ابراهيم)

إثر أحداث فض اعتصامي رابعة والنهضة في أغسطس ٢٠١٣، نفذ رائد الجيش السابق (وليد بدر)[٣] محاولة اغتيال وزير الداخلية (محمد إبراهيم) بسيارة مفخخة في ٨ سبتمبر ٢٠١٣، دون أن يتمكن من قتله.

٤- حادثة الفرافرة ٢

مع تساقط خلايا تنظيم أنصار بيت المقدس بالمحافظات مطلع ٢٠١٤ أنشأ المقدم (هشام عشماوي) معسكرًا بالواحات؛ ليأوي العناصر الهاربة من المطاردات[٤]، وبدأ عشماوي انطلاقًا من هذا المعسكر ينفذ

(١) انظر بيانات المتهمين في القضية في مقال للمحامي مختار نوح، جريدة المصريون، ٦-١٠-٢٠٠٩.
(٢) انظر: رفاعي سرور، التصور السياسي: ص٢٧٩ ، ٢٨٠.
(٣) فصل من الخدمة عام ٢٠٠٥، شارك بالقتال في أفغانستان والعراق.
(٤) انظر اعترافات عضوي المعسكر المقبوض عليهما: (علي صبحي فرحات ونمر إبراهيم)، بوابة أخبار اليوم، ٢٠١٦/٣/٢٦.

عمليات بالصحراء الغربية؛ فهاجم: دورية جيش بالواحات[١] في ١-٦-٢٠١٤؛ مما أسفر عن مقتل ٥ من عناصر الجيش، ثم هاجم وحدة عسكرية بالفرافرة في ٢٠ يوليو ٢٠١٤؛ مما أسفر عن مقتل ٢٢ عنصرًا من الجيش، فيما تعد أول عملية إبادة لوحدة عسكرية مصرية كاملة بواسطة تنظيمات مسلحة داخلية.

مما سبق نجد أن للعسكريين المصريين دورًا بارزًا في مسيرة التيارات الجهادية، سواء بتطوير نظريات التغيير وتكتيكات المواجهة، أو بتدريب الأفراد ورفع مستواهم القتالي، أو بتنفيذ العمليات الخطرة التي تحتاج لمستوى عالٍ من التدريب والاحتراف.

(١) حادثة الفرافرة الأولى



مقاومة الشعوب (١)

د. عمرو عادل

المقاومة الشعبية هي أحد السمات الرئيسية للشعوب المضطهدة سواء عن طريق الاحتلال أم عن طريق الاستبداد، ولا أعتقد عند ذكر مصطلح المقاومة أن تتبادر الجيوش إلى الذهن؛ حيث إنها إحدى أدوات السلطة، وعلى مدى ما أعرف لم تكن الجيوش على مر التاريخ الحديث أداة من أدوات المقاومة لتحرير الشعوب؛ بل كانت أحد أدوات ضبط السلطة سواء للمحتل أو لسلطة الاستبداد، والجيوش الحديثة أشبه بظاهرة فرسان المعبد في العصور الوسطى.

إذًا فمفهوم المقاومة المعاصر داخل نماذج الدولة الحديثة مرتبط بالقوى الشعبية غير المرتبطة بمفاصل السلطة، وتنقسم مراحل المقاومة إلى ثلاث مراحل رئيسية، وهي تجهيز الأرض للمقاومة، ثم المرحلة الثانية وهي المظاهر العملية للمقاومة الشعبية، والثالثة هي مرحلة الصدام الكبير والحسم.

والمرحلة الأولى -وهي تجهيز الأرض والمجتمع للمقاومة- هي الأخطر والأهم وربما هي ما سنحاول الحديث عنها في هذا المقال، ونكمل باقي المراحل بالتتابع إن شاء الله.

هناك عدة محاور رئيسية ألا وهي الجماهير والقيادة و الأرض والعدو، ولابد من التعامل مع العناصر الأربعة بعمق حتى يكون البناء قويًّا.

١. القيادة

هي التي تستطيع بناء باقي العناصر اللازمة للمرحلة الأولى، وبها تنضبط الحركة الشعبية. يقول إيريك هوفر في كتابه المؤمن الصادق: «لا تصعد الحركات الجماهيرية عادة، إلا بعد أن يتم تعرية النظام القائم، وهذه التعرية لا تجيء عفويًّا نتيجة أخطاء النظام وسوء استغلاله السلطة، بل عن طريق عمل متعمد يقوم به رجال الكلمة الذين يحملون ظلامات ضد النظام، عندما يغيب القادرون على صياغة الكلمات أو عندما يوجَدون ولا يحملون أي ظلامة؛ فإن النظام القائم مهما كان فاسدًا وضعيف الإرادة قد يستمر في الوجود، حتى ينهار من تلقاء نفسه»[١].

وفق هذا التعريف يمكننا فهم مهمة القيادة في تحديد العدو وتعريته أمام القوى الجماهيرية، فهي خطوة رئيسية مبدئية بصناعة وعي جماهيري عام، عن طريق كتلة لها قدرة على الحديث، وقدر معتبر من الحكمة والثقافة تؤهلهم لثقة الجماهير. وتؤكد هذه الجملة أيضًا أن وجود هذه القيادة ليس عاملًا مساعدًا، بل عاملًا رئيسيًّا، غيابه يوقف كل المحاور الأخرى.

وهذه القيادة لها صفات كما قال أيضا هوفر في كتابه: «إن الذين يحاولون تغيير أمة ما، أو تغيير العالم لا يستطيعون تحقيق هدفهم بتوليد التذمر واستثماره، أو إثبات أهمية التغييرات المنشودة وضرورتها، أو بإجبار الناس على تغيير أسلوب حياتهم. على الراغبين في التغيير أن يوقدوا الآمال الجامحة، وليس مهم أن ترتبط هذه الآمال بجنة سماوية أو على الأرض»[٢]. وكما ذكر أن قيادات الثورة الفرنسية وغيرها لم يكن لديهم الخبرة السياسية الكبيرة لأن دور هؤلاء «الخبراء» لا يأتي إلا متأخرًا بعد التأكد من نجاح الثورة[٣].

ويؤكد ذلك جوستاف لوبون[٤] في كتابه سيكولوجية الجماهير، على ضرورة أن تكون القيادة قادرة على زرع الأفكار بالجماهير[٥] بكل الطرق المتاحة. كما اتفق مع هوفر في أن الجماهير لا يمكنها التحرك دون قيادة[٦]، ومع تحفظنا على وصف لوبون الجماهير بالقطيع نظرًا لطبيعته المحافظة، إلا أن ما يعنينا هو تأكيده على ضرورة وجود قيادة للجماهير.

---

(١) المؤمن الصادق، إريك هوفر، ص ١٩٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٠.

(٣) المصدر السابق ص٣٢.

(٤) هناك اختلاف حول تقييم جوستاف لوبون العام للجماهير، ولكن لا يمكن إغفال قدرة أفكاره على الصمود والنجاح في الكثير من النقاط التي ذكرها والتي تتعرض لتوصيف الجماهير والقيادة الجماهيرية.

(٥) سيكولوجية الجماهير، جوستاف لوبون، ص ١٣.

(٦) المصدر السابق ص ١٢٧.

ربما مما سبق نستطيع بلورة العامل الأول في المرحلة التحضيرية، «ألا وهي القيادة»؛ حيث يتحتم وجود قيادة لها أفكار محددة تستطيع تفتيت النظام في عقل الجماهير، ويستطيعون أيضا بث الأحلام الجامحة في الجماهير. هذه الأمور يمكنها أن تصنع رأسا ثوريًا حقيقيًا، مع التأكيد على أن خبراء العمل السياسي غير مؤهلين لمثل هذا العمل. ومع التأكيد أيضًا أن مهما كان حجم الدمار الذي يسببه النظام، لا يمكن صناعة عمل ثوري بدون قيادة مؤمنة بالثورة.

العنصر الثاني هو الجماهير



وهي نقطة شديدة التعقيد، فهناك الكثير من العوامل التي يمكن بها توصيف الجماهير وتصنيفها، إلا أن هناك قاعدة عامة قد تكون مفيدة في أي نوع من التصنيفات الجماهيرية ألا وهي التوزيع الطبيعي[1] للبشر، فدائمًا ما توجد كتلة صغيرة تؤمن بفكرة التغيير ولا يمكن تغيير قناعاتها، كما أن هناك كتلة صغيرة أيضًا محافظة لا ترغب إطلاقًا في تغيير الوضع القائم، وهاتان الكتلتان لهما من الأفكار والأيديولوجيات والمصالح ما يجعلها غير قابلة للتغيير، وفي المنتصف كتلة ضخمة يعتمد انضمامها لأحد الاتجاهين طبقًا لقدرة إحدى الكتلتين على التأثير في تلك الكتلة.

يقول هوفر: «والمحافظة التي تميز المرضى المقعدين وكبار السن تنبع جذورها من الخوف من المستقبل، يخشى هؤلاء أن يأتي المستقبل ومعه المزيد من علامات الضعف والوهن، يشعرون أن أي تغيير سوف يكون إلى الأسوأ. كما أن الفقراء فقرًا مدقعًا لا يشعرون بأي أمل في المستقبل الذي يبدو كما لو كان فخًّا منصوبًا أمامهم عليهم أن يتحاشوه. عند هؤلاء كلهم لا يعني التغيير سوى المتاعب»[2].

هذا عين ما تفعله السلطة المستبدة أو سلطات الاحتلال، إفقار وإذلال وإمراض للمجتمع وإرهاب دائم

(١) مصطلح إحصائي.
(٢) المؤمن الصادق، إريك هوفر، ص ٣٢.

من المستقبل، لذا يجب على القيادات المحتملة للعمل الثوري العمل الدائم على صناعة الأمل، وتفتيت كل أدوات السلطة التي تقوم بذلك، وإلا ستبقى وحدها مهما حاولت ومهما أظهرت من عورات النظام، فإظهار العوار وحده ليس قادرًا على تغذية التمرد. والفقر وحده أيضًا لا يصنع ثورة؛ بل الوعي بالفقر والأمل في المستقبل، يذكر كرين برينتن في كتابه تشريح الثورة أن المجتمع الفرنسي حقق تطورًا اقتصاديًّا كبيرًا قبل الثورة(١)، فلم يكن الفقر هو الدافع لثورة الفرنسيين، وهذا يشير إلى أن الأمل هو من يصنع الثورة وليس الفقر، وهذا الأمل ينتج عن صناعة وعي.

ومن ذلك يمكن القول إن تثوير الجماهير يكون بضرب ساحق ومتتالي للنظام القائم الذي يدمر المجتمع، كما يجب دراسة تفصيلية للطبقات وقطاعات المجتمع وتحديد لغة الخطاب المناسبة لكل قطاع، وكذلك يجب الفصل في التفكير عند القيادة بين إدارة التنظيمات والكيانات التي تعتمد على الصلابة الفكرية والتنظيمية؛ وبين إدارة العمل الجماهيري الثوري الذي يعتمد على الصلابة الفكرية والسيولة التنظيمية، ولذلك ربما لا تستطيع التنظيمات قيادة عمل ثوري وتحتاج المقاومة لأطر أقل تنظيميًّا.

العنصر الثالث هو العدو

فلا يمكن أن تتشكل قيادة وتدفع الجماهير للمقاومة دون تحديد عدو ملموس؛ وليس فقط مجرد أفكار أو أمور مجردة، بل يجب أن يكون محددًا وواضحًا. وتحديد العدو هو عمل أصيل للقيادة ولا توجد معركة أو قدرة على التحفيز للمقاومة الشعبية دون تحديد للعدو ووضوحه في ذهن الجماهير، ولا يمكن أن يكون العدو مبهمًا، كمصطلحات النظام أو أعداء الشعب أو ما إلى ذلك، فإن هذه المصطلحات لا يمكنها دفع الجماهير للتحرك، قد تكون مفيدة في التنظير النخبوي والجلسات الفكرية أو حتى تحفيز الجماهير الغاضبة، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لتحريك الجماهير.

وبعد تحديد العدو يجب معرفته بشكل كامل ومفصل، كما أشار صن تزو في كتابه فن الحرب بقوله: «معرفة الآخر ومعرفة النفس؛ في مائة معركة ما من أخطر من عدم معرفة الآخر ومعرفة النفس؛ انتصار لقاء هزيمة، عدم معرفة الآخر وعدم معرفة النفس هزيمة مؤكدة في كل معركة»(٢).

(١) تشريح الثورة، كرين برينتن، ص ٥٥-٥٦.
(٢) فن الحرب، صن تزو، ص٦١.



العنصر الرابع في المرحلة الأولى وهو الأرض

والمقصود بالأرض هنا هو الظروف الميدانية وتوزيع العدو على الأرض وقدراته ومسانديه، فبدون هذه المعلومات فإن الدخول في أي مواجهة مع العدو هي هزيمة ساحقة بدون معركة، وقد أكد صن تزو على ذلك حيث اعتبر عدم معرفة أرض الصراع من الأخطاء التي تؤدي للهزيمة، وهي العنصر الثالث من عناصر النصر الخمسة التي ذكرها[١].

هذه العناصر الأربعة تحتاج لتفصيل أكثر وبناء أكثر عمقًا، ولكنه يعتمد على الظروف الخاصة بكل مجتمع، وكما أعتقد تجربة فيتنام أحد التجارب النموذجية في هذا المجال[٢]، وينبغي أيضًا ذِكر أن مدة هذه المرحلة ليست محددة، وتختلف طبقًا لظروف كل حالة من حالات المقاومة، إلا أن الأمر الهام هو ضرورة إدراك القيادة أن التسرع في التحرك للمرحلة الثانية دون اكتمالها خطر كبير، كما أن محاولة الوصول لشكل مثالي لهذه المرحلة هو أيضًا وهم كبير، لذلك فالقيادة هي عقل الثورة ومحركها المركزي، وهي المعنية باتخاذ القرار بضرورة التحرك من المرحلة الأولى للمرحلة الثانية، التي سنتحدث عنها في المقال التالي إن شاء الله.

(١) فن الحرب، صن تزو، ص٤١.

(٢) يمكن مراجعة كتاب تجارب ست ثورات عالمية، د. منير شفيق.



كيف هُزم الهنود الحمر

محمد شعبان صوان

لأنني أعتقد أن التاريخ مستشار يمكن الرجوع إليه في الأزمات، وليس مجرد حكواتي يسلي الناس في أوقات فراغهم الطويلة، فإن المصائب الكبرى التي تمر بها أمتنا في الفترة الأخيرة يمكننا أن نشهد مآلاتها فيما حدث لغيرنا، إذ إن الكوارث لم تقتصر على الهزائم، لا سيما أن الهزيمة العسكرية ظاهرة بشرية تمر بها كل المجتمعات، وليست دليلًا سلبيًّا إلا لو صاحبتها هزيمة الإرادة، التي وصلت اليوم حد الانجراف خلف إعلان الرئيس الأمريكي على مسمع ومرأى من عشرات القادة في العالم العربي والإسلامي أن المقاومة إرهاب، والمصادقة على ذلك عمليًّا بعد دفع إتاوة الرضوخ الباهظة من ثروة الأمة بالاصطفاف إلى جانب الأعداء التقليديين كالصهاينة في مواجهة أصحاب الحق الطبيعي، الذين كانت قضيتهم إلى وقت قريب تتذرع الأنظمة بها كونها القضية المركزية لأمة العرب، وأصبحنا نرى في الحقيقة ما لم يكن يخطر في الكوابيس أن يبرر من يدعي العروبة والإسلام هجوم الصهيوني على العرب المسلمين وإمطارهم بالقنابل على رءوسهم، في ظل سقوط إعلامي تغريبي و«إسلامي» يحتمِل أن «يسخّر الله إسرائيل لخدمة دينه»، فيكون اليهود ذوو الضمائر هم من يتصدى لهذا الجنون الوبائي.

لو أن الساقطين الذين يظنون أنفسهم فلاسفة سابقي عصرهم وهم يبشرون بقبول الاحتلال والهيمنة باسم الإنسانية والتعايش وقبول الآخر وسط ما يصفونه ببحر الهمجية والتخلف والتعصب، انتقلوا من قسم الفلسفة المزيفة إلى قسم التاريخ لرأوا أنهم ظاهرة متكررة كان الاستعمار كثيرًا ما يستخدم أمثالهم في إخضاع مقاومة الشعوب الثائرة؛ ليتبين فيما بعد أن فلسفتهم لم تكن أكثر من غطاء رقيق لمصالح ارتجوا أن يحصلوا

عليها من أعداء شعوبهم، فلا تحققت وعود السيد لهم ولا لشعوبهم، وكانت الطامة عندما أصبحوا أدوات هزيمة أممهم وانتصار الاستعمار عليهم وعلى شعوبهم.

فالدليل واضح منذ البداية ضد من يظن نفسه فيلسوفاً سابقًا عصره ومتفوقاً على «العامة» و«الدهماء»، وهو في الحقيقة عاجز عن قراءة بديهيات السياسة والتاريخ التي يلمسها رجل الشارع بفطرته: فكيف يمكن تحقيق سلام وليس استسلامًا بين طرفين غير متكافئين في القوة؟ بل إن أحد الطرفين تضمن الدول الغربية الكبرى تفوقه النوعي على مجموع أعدائه، ومتى تنازل القوي عن مكتسباته لصالح مبادئ الحق والعدل والإنسانية؟

في تاريخ الهنود الحمر نماذج كثيرة سبقت تاريخنا في فصول سياسة «فرق تسد» الاستعمارية التي حذرونا منها صغارًا فلما كبرنا رأيناهم وهم يقعون في فخها:

وصِف الجنرال جورج كروك (١٨٢٨–١٨٩٠) بكونه أعظم من قاتل الهنود في التاريخ الأمريكي، وشارك في الحرب الأهلية (١٨٦١–١٨٦٥) في سبيل «تحرير» العبيد ثم استدار ضد الهنود لسلبهم حريتهم، وقد استخدم طريقة مبتكرة لقهر السكان الأصليين باستعمالهم ضد بعضهم البعض، واكتشف ببرود، الأثر النفسي المدمر لهذه الممارسة وقال عن ذلك:

«ليس هناك أثر ضار بهم كأثر استخدام إخوتهم ضدهم، إنهم لا يقيمون وزنًا للجندي الأمريكي الذي يتفوقون عليه بسهولة وفقًا لأساليب حربهم التي يفرضونها علينا، ولكن عندما نضع في أثرهم عدوًّا من جنسهم مثابر ومراوغ وله القدرة على التخفي ولديه اطلاع على البيئة مثلهم فإن كل هذا سيحطمهم، والمسألة ليست مجرد كفاءة حليفنا الهندي في القبض عليهم بطريقة أفضل بل هناك هدف أهم وأكثر استمرارية وهو تفتيتهم وتحطيمهم»[1]، تمامًا كما يراد تحطيم مقاومة الفلسطينيين والعرب والمسلمين بأيادي تنتمي لجنسهم.

---

(1) John D. McDermott. (1998). A Guide to the Indian Wars of the West. Lincoln: University of Nebraska Press, p. 61.

١. استغلال الخلافات الداخلية:

استغل الأوروبيون وخلفاؤهم الأمريكيون الخلافات الداخلية، التي كانت تحتدم بين القبائل وتمزق القبيلة الواحدة ضمن المعادلة الاستعمارية الشهيرة «فرق تسد»(١)، فاستخدموا قبيلة ضد أخرى وزعيمًا مهادنًا ضد آخر مقاوم، وكانت هذه الانقسامات تساهم في إخضاع الأرض للغزاة ولم تعد بأية فائدة حتى على من وقف إلى جانبهم، وتم اجتياح الجميع وإيقاع الدمار بهم، ولم يكن مصير المتعاونين أفضل من المقاومين، وهذا ما حدث في فلسطين عندما خدع البريطانيون واليهود قسماً من أهلها ولعبوا على وتر الخلافات الداخلية وانقسام الأحزاب بين مجلسيين ومعارضين واستخدموا فلسطينيًّا مهادنًا للاحتلال، تحت عنوان «فصائل السلام»، ضد فلسطيني مشارك في الثورة الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩، ولعل من قاتل الثائر كان ثائرًا إلى جانبه قبل قليل، والزعيم الذي وقف ضد الثورة كان ضمن رجالها في الأمس القريب، تمامًا كما يحدث اليوم، وتمامًا كما حدث لبعض مقاتلي الهنود الذين كانوا يستديرون ضد إخوتهم وينقلبون على أعقابهم بعد ثورة أو معركة ضد العدو الأبيض، كما استُخدم الزعماء العرب من «أصدقاء» بريطانيا الحميمين في إجهاض الثورة الفلسطينية الكبرى، حتى أتت ساعة الحقيقة فجرفت النكبة الجميع بلا تمييز، وتلاحظ الدكتورة سحر الهنيدي أن سياسة الانتداب البريطاني قامت على سد الطريق أمام طموحات الفلسطينيين بوسائل، منها استغلال العداوات بين زعمائهم لإضعاف حركتهم الوطنية وتمزيقها، بتشجيع فصيل محدود على شق الصفوف بطريقة تمكن المندوب السامي من الادعاء أن القيادة الوطنية لا تمثل كل السكان، وتكاملت السياسة الصهيونية مع سياسة الانتداب وقامت بتشجيع «الحزب المعتدل»، واستغلال الضغائن والخلافات التي تمكن المندوب السامي من إثارتها بين الأحزاب(٢).

٢. التفتيت وإشعال الحروب

لقد تميز العالم الجديد الذي صنعه الأوروبيون في أمريكا بزيادة غير مسبوقة في درجة ممارسة العنف، التي نتجت عن التمزق الاجتماعي الذي أدى إلى العنف الفردي العشوائي، كما وصلت الحروب مستويات عالية في شدتها، وقد حارب الهنود بعضهم البعض في سبيل الحصول على أسلحة البيض التي وجهوها نحو أعدائهم، الذين كثيرًا ما كانوا من جنسهم، كما أدى الاعتماد على الأوروبيين في الحصول على وسائل المعيشة والدفاع إلى الانخراط في الحروب الأوروبية داخل أمريكا؛ حيث تعاملت أوروبا مع الهنود بمنطق بيع الولاء

(1) Colin G. Calloway. (1995). The American Revolution in Indian Country: Crisis and Diversity in Native American Communities. Cambridge: Cambridge University Press, p. 6.

(٢) سحر الهنيدي. (٢٠٠٣). التأسيس البريطاني للوطن القومي اليهودي: فترة هربرت صامويل ١٩٢٠-١٩٢٥. (ترجمة: عبد الفتاح صبحي) بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص ٢٩٤-٢٩٥.



وشرائه، مما أدى إلى زيادة الحروب بين القبائل والتي كان الأوروبيون يحدون منها أو يغذونها[1]، حسب ظروف مصالحهم، وبهذا لم يكتفِ الأوروبيون والأمريكيون باستغلال الخلافات الداخلية بين القبائل، بل كثيرًا ما اختلقوا بينها حروبًا لأجل مكاسبهم التجارية من الرق والفراء، أو حروب وكالة ضمن الصراع الأوروبي على النفوذ في القارة، أو لقمع قبيلة متمردة أو زعيم ثائر.

مما نجد له مشابهًا حديثًا في الدور الصهيوني في إشعال الخلافات والانقسامات في الشرق العربي؛ كما فعل في لبنان والسودان والعراق، أو الدور الغربي عمومًا، والذي وثقه الدكتور (جيرمي سولت) في كتابه المترجم إلى العربية (تفتيت الشرق الأوسط: تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي)، وهناك من الغربيين من يدعي أن المجتمعات الأصلية منقسمة أصلًا ويحاول تبرئة الفاعل الغربي من جرائمه، ولكن نظرة واحدة على هذه الانقسامات لو لم يتدخل العامل الغربي -ضمن علم ما يسمى «ماذا لو؟»- لوجدنا أن الإبادة لم تكن لتحل بالهنود الحمر نتيجة خلافاتهم وحدها، ولما دمرت مجتمعاتنا في فلسطين والعراق ولبنان والسودان والصومال وأفغانستان وسوريا وليبيا واليمن وغيرها حيث حل التطفل الأجنبي، لو اقتصرت الخلافات على أهاليها، ولوجد المجال الاجتماعي الداخلي آليات لحل مشاكله ذاتيًّا بلا هذا الكم الهائل من الدمار.

٣. تغيير الزعماء وصناعة العملاء:

لتحقيق أهداف سياستهم، كان الأمريكيون يفضلون التعامل مع الزعماء المسالمين الذي يقبلون بالإملاءات الأمريكية، وإذا اعترضهم نفوذ أحد الزعماء المقاومين، كانوا يحاولون جهدهم تحطيم نفوذه و«تحرير» القبيلة من «طغيانه» بالإتيان بزعماء مطواعين بتركيز التعامل معهم وإهمال المقاومين، وإسباغ الهيبة عليهم أمام قومهم -فترة الحاجة إليهم فقط- واحتقار الرافضين، أو بالتعامل مع رءوس العائلات أو أفراد القبيلة بشكل مباشر لتفتيت إرادتهم الجمعية، أليست «الفردية» من مظاهر الديمقراطية؟ ونرى اليوم في بلادنا نفس طريقة الماضي في التعامل مع الزعماء الهنود المنتخبين الذين يمثلون شعوبهم ويتمسكون بحقوقها، ومحاولات الحط من شأنهم وتدمير مكانتهم وعزلهم أو قتلهم، للإتيان بعملاء مطواعين يُشترى أحدهم بزجاجة خمر للتوقيع على التنازل عن حقوق شعبه وأرضه، أو بتعيين وكلاء حكوميين- مثل المندوب السامي أو الحاكم الأمريكي في تجربتنا العربية- لتسهل السيطرة على القبيلة بواسطتهم، وإذا لم تفد كل هذه الوسائل تلجأ السلطات إلى الاغتيال، وكل هذا ليس بعيداً من تجاربنا الحديثة مع الكيان الصهيوني والغرب الاستعماري عندما يقف زعيم في طريق مطامعهم.

(1) Colin G. Calloway, pp. 5-6.

٤. إنشاء سلطات محلية للهيمنة على الأهالي ودعم استبدادها:

بعد استتباب الأوضاع للاستعمار الاستيطاني في بلاد الآخرين وهزيمة مقاومة الأهالي، يعمد المستعمِر إلى السيطرة على ما تبقى منهم، بإنشاء حكومات محلية يختارها من الزعامات المتعاونة معه، والتي يوجد نموذجها في كل أشكال الاستعمار التقليدية والاستيطانية، ويسميها التعبير الماركسي طبقة (الكومبرادور)، وقد لجأ الأمريكيون إلى إنشاء الحكومات القبلية منذ سنة ١٩٣٤ على أنقاض الحكومات التقليدية التي كانت تحكم الهنود، وكان هذا هو خيار الاستعمار الأوروبي في بلادنا عندما أنشأ دول التجزئة؛ ليقوم حكامها بوظائفه نفسها بعد رحيل جيوشه، وذلك بعد سقوط دولة الخلافة الإسلامية، ولهذا دعم الغرب ديكتاتوريات التجزئة وأمدها بالعون السياسي والاقتصادي والعسكري أيضًا، وتطلب إنشاء الحكومات الهندية الحديثة في نفس الفترة تأليفها على غرار نماذج الحضارة الغربية وضرورة موافقة وزير الداخلية الأمريكي عليها(١).



وعندما اندلعت ثورة «القوة الحمراء» سنة ١٩٧٣ في الموقع الذي جرت فيه مجزرة الركبة الجريحة التي قضت على المقاومة الهندية المسلحة (١٨٩٠)، وقف النظام الأمريكي إلى جانب السلطة القبلية الاستبدادية بشكل واضح(٢)، فهل نحن اليوم بصدد تطور دولة التجزئة بتعميم نموذج السلطة الفلسطينية لتصبح جميع الدول العربية وكلاء للاحتلال الصهيوني تتصرف بأمره وتلاحق كل من يعاديه لتحقيق التدجين الكامل للأمة؟

٥. التخلي عن شركاء السلام وازدراؤهم:

لم يكن الزعماء المسالمون بمنأى عن العدوان الأمريكي، رغم أن السلطة الأمريكية استخدمت نفوذهم في بعض المراحل لتحقيق أهدافها وأوهمتهم بالصداقة الأبدية، فربما حصل الزعيم الهندي على ميدالية تقدير من الرئيس الأمريكي نفسه، أو شهادة صداقة تثبت ولاءه (تطور الأمر في زمننا فأصبحنا اليوم نحن من يدفع للسيد ثمنًا بليونيًّا باهظًا لتفضله بقبول تبعيتنا)، ومع ذلك يُقتل التابع برصاص الجيش لأن ما قدمه غير كاف للجم قومه (نفس الحجة الحديثة عند الكيان الصهيوني)، أو لأن المصالح اقتضت ذلك، أو لأن الرئيس الأمريكي غير قادر على ضبط جنوده بكل أسف، وقد قُتل كثير من الزعماء المسالمين برصاص الأمريكيين.

---

(1) Jack Utter. (2001). American Indians: Answers to Today›s Questions. Norman: University of Oklahoma Press, p. 272.

(2) Vine Deloria, JR. (1992). God Is Red: A Native View of Religion. Golden, Colorado: Fulcrum Publishing, p. 20.

-Alvin M. Josephy, Jr. (1989). Now That the Buffalo›s Gone. Norman: University of Oklahoma Press, pp. 244, 252-253.

ولعل أوضح مثال على هذا قصة زعيم قبيلة الشايان «الإبريق الأسود» الذي قضى عمره في البحث عن السلام واتباع أوامر الرجل الأبيض وسلوك سبيل الأمان، مضحيًا بحقوق قومه وموافقًا على تقديم الأرض مقابل الحصول على السلام، فكانت النتيجة أن تعرض قومه لمذبحتين من أبشع مذابح التاريخ الأمريكي في نهير الرمل Sand Creek ١٨٦٤ وواشيتا (١٨٦٨)، وقُتل هو تحت سنابك الجيش الأمريكي بكل وحشية هو ومئات من أفراد قبيلته.

وكم من زعيم سلام لاقى الترفع والاستكبار من الرجل الأبيض، فهذا يعرض خدمات للقتال إلى جانب الجيش فيلاقي الإعراض والرفض بازدراء، وهذا يمد يده للسلام على الجنرال الأمريكي فيرفض الجنرال مس يده (مقارنة مع مصافحة اتفاق أوسلو في البيت الأبيض)، ولعل هذه الصور تعيد إلى أذهاننا صورًا معاصرة عن كيفية معاملة الذين ساروا في درب عملية السلام والتبعية للرجل الأبيض.



دور المفكرين في إسقاط الأنظمة

آرنولد توينبي نموذجًا

د. أحمد الشرقاوي

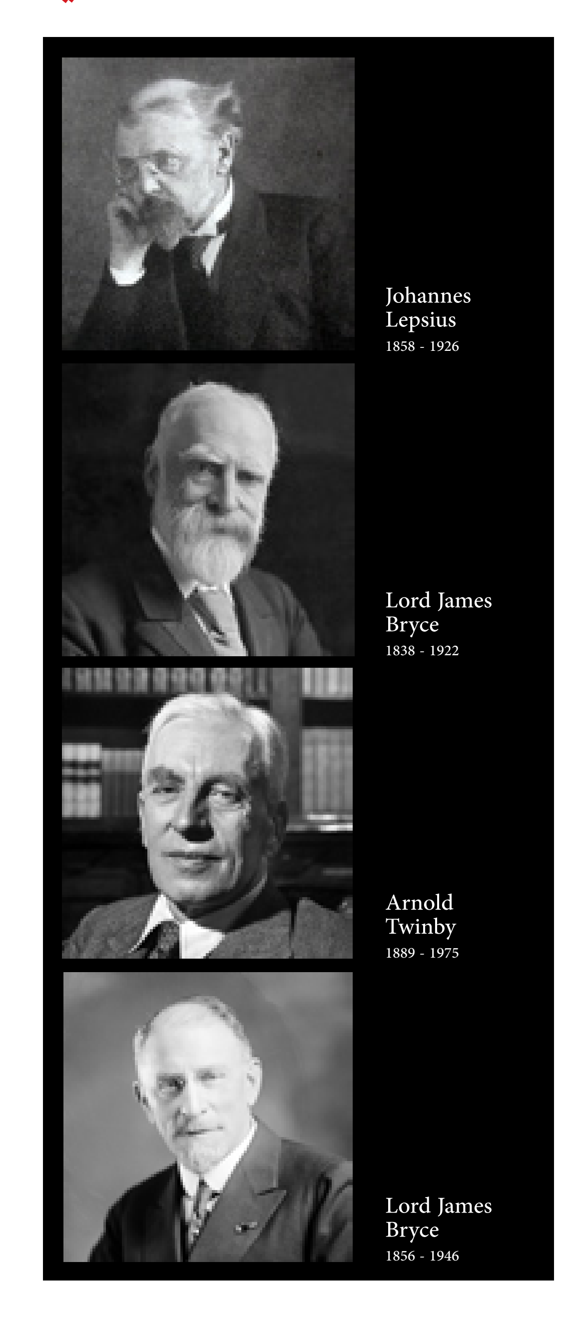
كانت المذابح الأرمنية المزعومة واحدة من القضايا الكبرى التي اتخذها الغرب ذريعة للمسارعة بمعدلات أكبر للتخلص من الدولة العثمانية، لأنها النسيج الأكثر حبكًا في خيوط المؤامرة، ومن جهة أخرى لأنه نسيج الدولة التي ضمت الأقليات الدينية والعرقية تحت ظلال الشريعة الإسلامية السمحة؛ فساهموا في بناء الدولة، ثم ما لبثوا أن نقضوا غزلهم من بعد قوة أنكاثًا، ليصبحوا أحد معاول الهدم فيها، واجتمعت عوامل داخلية وخارجية لتجعل من الأقليات -وعلى رأسها الأقلية الأرمنية- الورقة الرابحة في تفتيت الدولة العثمانية وتشويه سمعتها لدى الرأي العام العالمي، منذ بدايتها وحتى يومنا الحاضر.

وأحاول في هذا المقال -وما بعده- إلقاء الضوء على خيوط تلك المؤامرة ضد الدولة العثمانية، والتي كانت واحدة من أسباب انهيارها.

لم تحظ الكتب التي نشرت عن المسألة الأرمنية بما حظيت به أربعة منها؛ باعتبارها مصادر أساسية لشهود عيان معاصرين للأحداث، ويكاد يكون مؤلفو هذه المصادر الأربعة هم أصحاب أناجيل القضية الأرمنية، وما زالوا حتى اليوم يشكلون المصدر المعتمد لكل الكتاب حول المسألة، وصارت تعبيراتهم مسلمات تاريخية، وكلماتهم اقتباسات ثرية للخطب والشعارات التي تلهب حماس القضية وأصحابها. وقد أخضعتُ بعض هذه المؤلفات وأصحابها للبحث والتحري؛ لمعرفة دوافعهم وأيديولوجياتهم، والظروف المحيطة بهم وبمؤلفاتهم، لكن البعض الآخر ما زال يحتاج إلى البحث والتحري، بل وما زالت كلها تحتاج إلى جهود أكبر

في مواصلة البحث عن العلاقات بين هذه المؤلفات، والعلاقات أيضًا بين مؤلفيها، ثم نشر هذه النتائج على نطاق واسع، يقارب -إلى حد ما- النطاق الذي انتشرت فيه هذه المؤلفات والمؤلفات الأخرى التي اعتمدت عليها بشكل رئيسي[١].

وهذه الكتب ومؤلفوها كالتالي:



١) كتاب حرره ليبسوس بعنوان: «التقرير السري للدكتور جوهانس ليبسيوس عن مذابح الأرمن»، والذي طبع في باريس عام ١٩١٨.[٢]

٢) كتاب «معاملة الأرمن في الإمبراطورية العثمانية»، وهو مجموعة شهادات جمعها السياسي البريطاني اللورد برايس عما يسمى بـ«الجينوسيد»، شرحها ونسقها وعلق عليها المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي، ثم قدمها اللورد برايس إلى اللورد جراي وزير الخارجية البريطاني، فقام جراي بتقديمها إلى البرلمان البريطاني. وهي مطبوعة في لندن عام ١٩١٦ باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وقد اشتهر أيضًا بعنوان «الكتاب الأزرق»[٣].

٣) ثم كتاب آرنولد توينبي نفسه المعنون «الفظائع ضد الأرمن؛ مقتل أمة»، والمنشور بالإنجليزية في لندن عام ١٩١٥.[٤]

٤) وأخيرًا مذكرات السفير الأمريكي في استانبول في بدايات الحرب العالمية الأولى هنري مورجنثاو، وكتابه: «قصة السفير مورجنثاو» الذي بدأ نشره في نيويورك سنة ١٩١٨.[٥]

---

(١) أحمد عبد الوهاب الشرقاوي: أبعاد المشكلة الأرمنية، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد الدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، ٢٠١٠م، ص ٦١٢.

(٢) Johannes Lepsius: Le rapport Secret du Dr. Johannes Lepsius Sur les Massacres d›Arménie, Paris, ١٩١٨.

(٣) James Bryce: Treatment of the Armenia in the Ottoman Empire, London, ١٩١٦.

(٤) Arnold Toynbee: Armenian Atrocities: Murder of Nation, London, ١٩١٥.

(٥) Henry Morgenthau: Ambassador Morgenthau›s Story, New York, ١٩١٨.

واللافت للانتباه في هؤلاء الأربعة ومؤلفاتهم، بل والمثير هو العلاقة بين هؤلاء الأربعة، واشتراكهم في المصادر التي استقوا منها، واشتراكهم كذلك في الدوافع والظروف التي هُيّأت لتصنيف هذه المؤلفات.

في ٢٢ يونيو ١٩١٢ كتب توينبي في رسالة إلى والدته أنه يرغب في رؤية الأتراك يطردون من أوربا، ليس فقط لأنهم «طغاة مستبدون»، ولكن لأنهم أيضًا «كسالى وأغبياء»[١]. وفي رسالة أخرى لوالدته -بعد بداية الحرب- يقول توينبي لوالدته: «لن نهدأ حتى تكون النهاية، لن نترك قطعة من تركيا إلا شظايا»[٢]. قال جوردون مارتل **Gordon Martel** عن توينبي بأنه باحث عن الشهرة، كما كان يشترك مع لورد برايس في بغضه الشديد للأتراك.

في مايو ١٩١٥ ذهب توينبي (الشاب) إلى لندن للعمل في فترة الحرب في القسم الذي أنشئ حديثًا وهو قسم «الدعاية» التابع لـ **Wellington House**، وكرس نفسه هناك مدة عامين في نشر الكتب والمقالات ضد دول المحور، وكل أعداء الحلفاء، وأصدر مجموعة من الكتب منها:

- الإرهاب الألماني في بلجيكا
- الإرهاب الألماني في فرنسا
- فظائع ضد الأرمن
- موت الممرضة كافيل

ووفقًا لوصف كلا من ساندر وتايلور: صار أرنولد توينبي خبيرًا في «دعاية المذابح»[٣] ومنذ عام ١٩١٦ بدأ الشاب توينبي -وبتعليمات من لورد برايس- في جمع المعلومات المضادة لتركيا من العديد من الدول والشخصيات، وكذلك اللجان والجمعيات الأرمنية»[٤].

كتب توينبي إلى اللورد برايس في ١١ مايو ١٩١٦ يقول: «ناقش مستر جويرز **Gowers** من مكتبنا (ويلنجتون هاوس) مع مستر مونتجومري **Montgomery** من وزارة الخارجية كيفية نشر الوثائق الأرمنية، وهم يقترحون أن تقوم أنت بإرسال هذه الوثائق إلى سير إدوارد جراي **Edward Gray**، وتكتب معها ملحوظة أنك قد أشرفت على إعدادها، في هذه الحالة سوف يثقون في هذه الوثائق، ويتم نشرها من قبل وزارة الخارجية كوثائق رسمية، كما لابد أن يحتوي المستند المرسل على ملحق بخطك وتوقيعك، وبهذه الطريقة سوف يتم حل مسألة النشر، لإعطاء الكتاب صبغة رسمية، وبهذه الطريقة أيضًا سوف يتم إعفاء وزير الخارجية من مسئولية وعناء دقة الأمور المذكورة في المستندات»[٥].

---

(١) Gordon Martel : The origin of the Chatham House Version, in Edward Ingram (ed): National and international Politics in the Middle East, London, ١٩٨٦, P.: ٧١.

(٢) Ibid, P.: ٧٢.

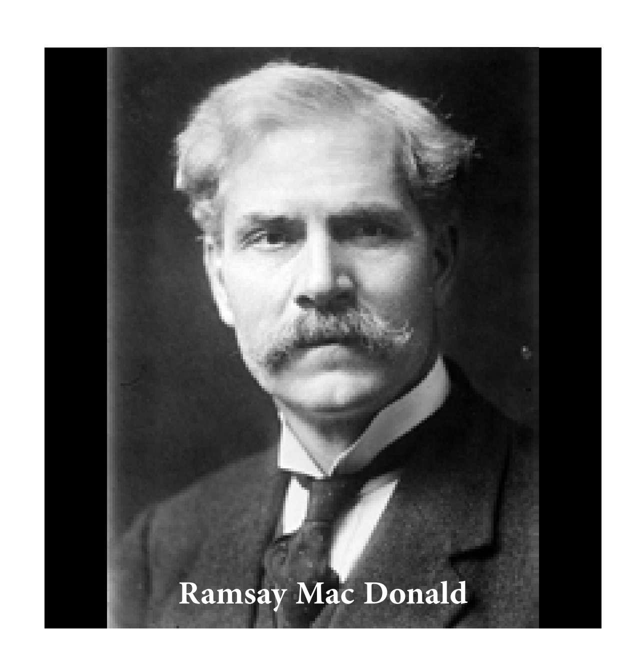
(٣) Michael Sanders, Philip M. Taylor: British Propaganda During the first World War, ١٩١٨ – ١٩١٩, London, ١٩٨٣, P.: ١٤٥.

(٤) F. O. ٢٠٥/٩٦. Toynbee papers.

(٥) F. O. ١٦٢٦٤٧/٣٤٠٤/٣٧١, P.: ٢ - F. O. ٢٠٥/٩٦. Toynbee papers – Gurum, Op. Cit., P.: ٤٣ – ٤٢ – S. Sonyel, Op. Cit., P.: ١٤٧.

انتقل أرنولد توينبي إلى المخابرات عام ١٩١٧، لم يكن الرجل راضيًا عن أعماله تلك، وعن كونه «رجل دعاية»، ورأى نفسه شخصية كريهة وممقوتة، لأن العمل الذي قام به لم يكن عمل إنسان «محترم». هذا ما صرح به أرنولد توينبي نفسه بعد انتقاله للمخابرات، إذ أدرك أن الحكومة البريطانية نشرت «الكتاب الأزرق» لغرض معين لم يدركه في حينها، بل ويعتقد أيضًا أن اللورد برايس نفسه لم يدركه[١].

وكانت الجيوش الروسية قد ارتكبت مذابح وحشية ضد اليهود -وفق ما قاله توينبي- عند تراجعها من الحدود البولندية/ الليتوانية في ربيع عام ١٩١٥، فقام اليهود الأمريكان بعمل حملات صحفية ضخمة ضد دول الحلفاء، ودعت كلًّا من بريطانيا وفرنسا المسيحيتين «بالتصدي لوحشية حلفائهم البرابرة». وكانت بريطانيا قلقة حيال هجوم الأمريكان على الحلفاء؛ لرغبتها في إشراك أمريكا إلى جانب الحلفاء، وكسب تعاطف الرأي العام العالمي. لذا؛ فقد رأت أن تحول دفة الأحداث صوب تركيا، وترمي بمسئولية الجدال الحادث في أمريكا على كاهل الأتراك، وقد وفرت الحوادث الأرمنية دعاية مضادة لدول المحور[٢].


Ramsay Mac Donald

وهو ما أكده بعض الساسة البريطانيين، إذ صرح كل من هنري هيربرت إسكويز **Henry Herbert Asquith** وستانلي بالدوين **Stanley Baldwin** في مذكرتهم المشتركة المقدمة إلى رئيس الوزراء رامزي ماكدونالد **Ramsay Mac Donald** بعد نهاية الحرب، بأنه لاشك في أن «الكتاب الأزرق» قد استخدم بطريقة واسعة الانتشار لصالح الدعاية لدول الحلفاء، وكان له تأثير كبير على الرأي العام، خاصة في أمريكا، وله دور كبير في قرار دخول الرئيس وودرو ويلسون **Woodrow Wilson** الحرب[٣].

(١) Toynbee: Acquaintances, London, ١٩٦٧, P.: ١٥٢ - ١٤٩.

(٢) Ibid, P.: ١٥٢ – ١٤٩.

(٣) Toynbee Papers, Box an Armenian Memorial, -١٩٢٤/٩/٢٦ Masa Andersson Noel Buxton, A life, London, ١٩٥٢, P.: ٨١ – S. Sanyel, Op. Cit., P.: ١٤٨ – ١٤٧.

وأخيرًا جاء اعتراف توينبي:

ففي كتابه «المسألة الغربية في اليونان وتركيا[١]» الذي صدر في لندن سنة ١٩٣٢، ذكر توينبي أن ما كتب عن التنديد بأحداث سنة ١٩١٥ في الدولة العثمانية ضد الأرمن، هو دعاية حرب تشوبها المبالغة.

ثم ذكر توينبي مرة أخرى في مذكراته الصادرة بالإنجليزية في لندن سنة ١٩٦٧ بعنوان «معارفي»: أن ما سبق أن كتبته ووصف فيه أحوال الأرمن، كان دعاية حرب لأن السلطات العثمانية قد وجدت الأرمن العثمانيين يمثلون «الطابور الخامس» لقوات الحلفاء، فقررت ترحيلهم بعيدًا عن مناطق القتال، وأن هذا الإجراء هو إجراء أمني مشروع تتخذه غيرها من الدول في مثل هذه الظروف[٢].

---

(١) Arnold Toynbee: The Eastern Question in Greece and Turkey, London, ١٩٣٢.

(٢) Arnold Toynbee: Acquaintances…, Op. Cit., P.: ٨١.

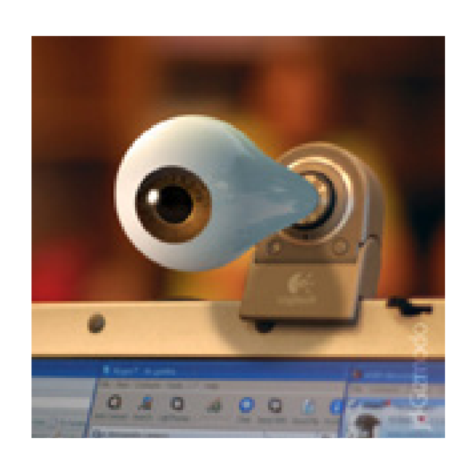
هكذا تتم مراقبتك!

(دليلك للأمان على الإنترنت)

م. سامح السيد

كانت قد تسربت أنباء أن الحكومة المصرية قد بدأت في تطبيق تقنيات متقدمة في مراقبة الإنترنت، تتيح لها التتبع وتحديد الأماكن وفحص البيانات إلخ، بصورة واسعة النطاق. هذه التقنية ستتيح للحكومة المصرية مراقبة رسائل البريد الإلكتروني، والشبكات الاجتماعية (مثل فيسبوك و تويتر) وبرامج التراسل (مثل واتساب، وفايبر، وسكايب) لحظيًّا أثناء انتقال البيانات عبر الإنترنت.

الرقابة على الإنترنت قد تكون مفيدة في منع جرائم الاحتيال والقرصنة الإلكترونية؛ لكن الهدف من هذه الرقابة في مصر بالأساس هو لمراقبة أنشطة «الإسلاميين»، كما جاء في المصدر[1].



شركة «سي إيجيبت» See Egypt التي قدمت عرضًا بالتقنية للحكومة المصرية - ولم تفصح هل تم الموافقة على العرض أم لا - هي موزع للشركة الأمريكية بلو كوت Blue Coat، والتي بدورها أكدت أن شركة سي إيجيبت لم تقم ببيع أي من منتجات شركة (بلو كوت) للحكومة المصرية تتيح لها مراقبة الشبكات الاجتماعية[2].

---

(1) EXCLUSIVE: Egypt Begins Surveillance Of Facebook, Twitter, And Skype On Unprecedented Scale

(٢) Egypt launches deep-packet inspection system

سواء صحت التسريبات أم لا، فينبغي على العاقل أن يحمل أمر الأمان الرقمي على محمل الجد؛ فلن يكون هناك أي تفرقة بين الإسلاميين وغيرهم من المعارضين، خاصة وأن الحكومة المصرية تراقب الاتصالات بالفعل منذ زمن عن طريق خبراء متخصصين، ولكنها كانت مقصورة على تتبع أشخاص بأعينهم أو مجموعات بعينها. الجديد في الأمر أن التقنيات المطروحة تتيح لهم تتبع أي شخص أو مجموعة بسهولة أكثر. المشكلة أنك قد تصبح تحت المراقبة بمجرد أن تقوم بالإعجاب على منشور على الفيسبوك، أو إعادة نشر تغريدة على تويتر، حتى و لو لم تقم بأي نشاط مناهض للحكومة![١].

نصائح الأمن الرقمي

ترددت كثيرًا أثناء كتابة هذه المقالة، وإلى أي درجة من التفاصيل سأكتب، ثم استقر رأيي على كتابة النصائح الأساسية للمستخدم العادي غير المتخصص، والتي تمثل الحد الأدنى من الأمان الرقمي. وذيلت المقالة بمقالات وأدلة تفصيلية متوسعة تفيد الأشخاص الذين يمثل لهم الأمان الرقمي أهمية أكبر.

أولًا: نصائح عامة

١. أعط أهمية لمسألة خصوصيتك وأمنك بصفة عامة، وأمنك الرقمي بصفة خاصة، ولا تقل: ليس لدي ما أخفيه لأنك بذلك تهدر حقك في أن يكون لك خصوصية.

٢. كقاعدة عامة، لا يوجد أمان كامل على الإنترنت، وليس هناك حل سحري لمشاكل الأمن الرقمي، إنما نأخذ بالأسباب ونسدد ونقارب. و في النهاية «لا يغني حذر من قدر»، ولأن ما لا يُدرَك كله لا يُترَك جُله، سنركز نصائحنا على ثلاثة محاور: عدم لفت الانتباه - تصعيب المراقبة - القدرة على التنصل.

ثانيًا: عدم لفت الانتباه

مهما سهلت التقنية على المراقبين، تظل مراقبة كل الناس عملية شاقة، وبالتالي يمكن للأجهزة الأمنية الاقتصار في عملية المراقبة على تتبع الأشخاص المشهورين ومن يتصل بهم، مراقبة مواقع مشهورة ومن يتردد عليها، مراقبة الاتصالات واصطياد كلمات معينة (سواء منطوقة أو مكتوبة). أو بعبارة أخرى: سيوفرون مجهوداتهم لمن يمثل خطورة عليهم أكثر، فإن فرغوا منهم التفتوا إلى من دونهم! وبالتالي فلنضع لأنفسنا هدفًا أن نتوه وسط هذا البحر من الناس، ولا نلفت الانتباه إلينا، والنصائح التالية تساعدنا في هذا الأمر إن شاء الله:

(1) Canada Day bomb plot couple freed after judge rules police entrapped them



اجعل من عاداتك عدم إشاعة المعلومات عنك أو عن غيرك إلا للضرورة، وليكن شعارك «المعرفة على قدر الحاجة».

حاول تقليل الاعتماد على وسائل الاتصال في تعاملاتك قدر الإمكان، وليكن الاتصال المباشر - وجها لوجه - هو الوسيلة المفضلة لديك.

لا تتردد على مواقع قد تراقبها الحكومة من غير تأمين الاتصال بالإنترنت (سيأتي مزيد تفصيل في الفقرة ثالثًا).

الاتصالات عن طريق الجوال GSM أسهل في المراقبة من محادثات الإنترنت المشفرة.

لا تثق بأحد! و احذر أن تُستدرج لأي عمل أو تفضي بأي معلومة إلا لشخص تعرفه جيدًا، وتعلم أن إطلاعه على هذه المعلومة مناسب، وهذا الاستدراج يعرف بالهندسة الاجتماعية. و من أمثلة ذلك أن يراسلك شخص للتوظف براتب أكبر بكثير جدًّا من وضع السوق. أو لمحاولة توريطك في عمل عدائي كما فعلت عناصر من شرطة كندا لتوريط مسلمين في أعمال إرهابية. وأساليب الاستدراج هذه مشهورة جدًّا في القبض على الشباب من قبل الأجهزة الأمنية.

إذا كنت تجري مكالمة هامة، فلتكن وسط ضوضاء، ولا تصرح بأي معلومات مباشرة فيها. فهذا يصعب اصطياد الكلمات المفتاحية.

اعمل على نشر برامج الاتصالات الآمنة، وثقافة الأمن الرقمي بين معارفك، فكلما زاد مستخدمو هذه البرامج زادت فرصة أن «تتوه» بينهم!

لا تقبل صداقة من لا تعرفه على شبكات التواصل الاجتماعي، ولا تجعل كل منشوراتك عامة ؛ بل اقصرها على الأصدقاء فقط.

ثالثًا: تصعيب المراقبة

كما قلنا: المراقبة مهما كانت صعبة، ستظل ممكنة، ولكن الأمر يكمن في تصعيب الأمر على الأجهزة الأمنية، فيتحولون إلى لصيد أسهل! النصائح التالية تساعد في هذا الأمر:

لا تستخدم عنوان بريدك email الشخصي أو عنوان بريد العمل؛ بل قم بعمل حساب مخصص للاستخدام في المهام أو المواقع التي ترغب في حفظ خصوصيتها، ولا تربط هذا الحساب باسمك الحقيقي أو برقم جوالك أو أي معلومة تدل على هويتك الحقيقية. ولا تستخدم هذا الحساب في أي موقع قد يؤدي للتعرف عليك، مثل حساب البنك مثلا. ولا تنشر أي صور أو معلومة بهذا الحساب قد تؤدي للتعرف عليك.

إذا كان الموقع الذي تدخله يدعم الوصلات الآمنة/المشفرة https, فاستخدمها دومًا و لا تستخدم الوصلات العادية http. الفيسبوك مثلا لا يدعم إلا الوصلات المشفرة. موقع dailymotion للفيديوهات يدعم الوصلتين: https://www.dailymotion.com www.dailymotion.com

لاحظ كيف يبدأ عنوان الموقع بـhttps (الوصلة الآمنة). و لاحظ وجود القفل الأخضر, و هذا يعني أن الوصلة آمنة بالفعل. إذا ظهرت علامة القفل حمراء، أو عليها علامة x فإياك أن تواصل فتح الموقع، فإن أحدًا ما يقوم بالتنصت عليه!

تصفح الإنترنت باستخدام متصفح أكثر مناعة ضد الخروقات الأمنية، مثل فايرفوكس وكروم، ولا تستخدم إنترنت إكسبلورر.

لدرجات أعلى من الأمان، ستحتاج للدخول على الإنترنت باستخدام شبكات «تور Tor Network»، وهي شبكة مجانية لتعمية الاتصال بالإنترنت. ويمكن الدخول على هذه الشبكة من خلال الحاسب، أو جوال «أندرويد»، أو جوال «آي أو إس».

الدخول على الإنترنت عبر الشبكات الافتراضية Virtual Private Networks/ VPN ، مثل خدمة Freedome، وهي خدمة غير مجانية، لكن هذه الشبكة -وأشباهها- مهمة في تأمين الاتصال بالإنترنت، ويمكن استخدامها مع أو بدونها (هنا تفاصيل كثيرة وميزة كل واحدة منها، لكن هذه التفصيلات خارج نطاق المقالة).

في المحادثات الصوتية لا تستخدم شبكة الجوال لأن مراقبتها أسهل بكثير، بل استخدم برامج تتيح تشفير المكالمات مثل: Linphone أو Swisscom IO التي تعمل على أندرويد و iOS أو FaceTime على أجهزة آبل.

في الدردشة النصية، لا تستعمل الرسائل القصيرة SMS لأن مراقبتها سهلة؛ بل استعن بالبرامج التي تتيح تشفير البيانات مثل Telegram أو Wickr الذي يحوي ميزة إضافية على مجرد التشفير وهي التدمير الذاتي للرسائل، أو iMessage لأجهزة آبل.

لا تقم أبدًا بفتح روابط تأتيك عبر بريدك الإلكتروني، خاصة إذا لم تكن تعلم من أرسلها لك. إذا ظننت أن الرابط صحيح قم بالدخول على الموقع الذي يُفترض أن الرابط قد أتاك منه واطلع على الرسالة من داخل الموقع. هذه الروابط تأتي عادة من منظمات مثل البنوك وشركات البطاقات الائتمانية والمواقع الشهيرة التي تدير بها أموالك أو بياناتك الخاصة، وتصحبك إلى مواقع شبيهة جدًّا بالمواقع التي تألفها، والهدف طبعا هو سرقة بياناتك وأموالك بمجرد إدخالك اسمك وكلمة المرور! الروابط المنتشرة على الفيسبوك مثل «تعرف على من زار بروفايلك» وأشباهها، غالبًا تكون مصائد لاختراق الحسابات.

كن حذرًا عند تحميل البرامج أو الملفات، وسل نفسك دائمًا: هل الموقع الذي تحمل منه الملف مشهور؟ هل جربه أحد قبلك ولم يُصب بسوء؟ وطبعا لا تقم بتحميل أي شيء يأتيك عبر رابط على البريد الإلكتروني، و يمكنك الاستعانة بموقع virustotal.com المجاني لفحص الروابط والتأكد من أنها آمنة.

اضبط جوالك على القفل Lock إذا لم يستخدم لوقت قصير، واجعل فتح الجوال يتطلب إدخال كلمة مرور.

قم بتحديث نظام التشغيل والبرامج التي تستخدمها باستمرار.

راجع الصلاحيات التي تتطلبها برامج الجوال، فمثلًا: لماذا يطلب تطبيق للأحوال الجوية صلاحية للوصول لصورك على الجوال؟ لا تقم بتنصيب مثل هذه البرامج.

استخدم كلمة مرور قوية لكل موقع على حدة، ولا تستخدم نفس كلمة المرور في أكثر من موقع، وقم بتغييرها من حين لآخر. قد يعني هذا أن عليك استخدام برنامج لإدارة كلمات المرور مثل LastPass

رابعًا: القدرة على التنصل

إذا تم اعتقالك سياسيًّا وتمت مصادرة أجهزتك، ستفيدك النصائح التالية في عدم إيجاد ذرائع لإدانتك:

لا تقم بحفظ أي مواد قد تدينك على حاسبك أو جوالك، مثل صور المظاهرات، فيديوهات مناهضة للحكم، كتب فكرية تدعو للثورة والحرية، رسائل نصية تحتوي على مواعيد مظاهرات ... إلخ.

إذا كنت محتفظًا بالفعل بأشياء مثل التي ذكرت في النصيحة السابقة، فقم بحذفها فورا باستخدام برامج مثل Eraser. هذه البرامج تجعل عملية استعادة الملفات المحذوفة صعبة جدًّا.

لا تحتفظ بروابط لمواقع قد تدينك في قوائمك المفضلة Bookmarks/Favorites.

إذا كنت تتصفح الإنترنت من غير الدخول على شبكة تور، فينبغي فتح المتصفح في وضع التصفح الخفي، وهذا يسمى في متصفح كروم بـ Incognito mode، وفي متصفح فايرفوكس وإنترنت إكسبلورر بـ Private mode. هذا الوضع لا يحتفظ بسجل المواقع التي زرتها أثناء التصفح. ويمسح كل نشاطك الذي قمت به فور إغلاق المتصفح.

إذا كنت معتادًا على تصفح الإنترنت من غير وضع التصفح الخفي، فقم بحذف كل أنشطتك السابقة من إعدادات المتصفح.

تأكد من تعطيل «خدمات الموقع الجغرافي» location services في جوالك قبل التقاط الصور؛ لأن الصور التي تلتقط من الجوال قد تحتوي على موقع التقاطها!

قم بتشفير حاسبك، أو الملفات الحساسة التي تحتفظ بها باستخدام خاصية BitLocker الموجودة في نظام التشغيل ويندوز، أو باستخدام برنامج خارجي مثل TrueCrypt أو VeraCrypt.

مصادر مفيدة (باللغة العربية)

لا يمكن عرض كل نصائح الأمن الرقمي، ولا كل البرامج المفيدة في مقالة واحدة، وفيما يلي بعض المقالات والأدلة التفصيلية المفيدة باللغة العربية لمن أراد الاستزادة:

عدة الأمان الرقمي

https://securityinabox.org/ar

دليل سلامتك

https://salamatechwiki.org/wiki/الفهرس_الكامل_Full_Index

دليل الدفاع عن النفس ضد المراقبة

https://ssd.eff.org/ar/index

كيف يصلون إليك: أساليب انتهاكات الحكومات للحريات الشخصية

http://mustafamohsen.com/مقالات/كيف-يصلون-إليك-أساليب-انتهاكات-الحكوم

التواصل الآمن خطوة بخطوة

http://mustafamohsen.com/مقالات/التواصل-الآمن-خطوة-بخطوة

عدة الأمن الإلكتروني

https://blog.cyberkov.com/1814.html



خطة الطوارئ هي عملية موثقة لمجموعة من الإجراءات المتخذة لإعادة تشغيل العمل إلى حالته الطبيعية، بأقل الخسائر الممكنة وفي أسرع وقت نسبي.

وفي مقابل خطة الطوارئ سواء للشركات أو الأفراد توجد خطة طوارئ للحكومات بدءًا من الحكومات المركزية/ الفدرالية، نزولًا إلى المقاطعات والمدن؛ بل وحتى القرى الصغيرة عندها خطة بنفس المعنى، وهو استمرارية الحياة بشكل يتيح الراحة للمواطنين.

هنا نتعرض لخطة الطوارئ الشخصية للأفراد، وهم معرضون لمشاكل حياتية تؤثر بشكل أو بآخر عليها وعلى أداء الفرد ككل؛ لذا فالواجب على كل إنسان أن يضع له خطة تضمن له أن يتفادى تلك الهزات بأقل ضرر نفسي/ مادي ممكن.

في مقال لبراد لوميس -الخبير التقني بشركة صن جارد- نشر على موقع مجلة فوربس، يستعرض حالة حصلت له شخصيًّا، وهي بدءه في إجراءات الطلاق مرورًا بوفاة زوجته قبل إتمامها. هذه تعتبر حالة متكاملة ككارثة تصيب الإنسان في مسار حياته الطبيعي؛ لذا يستعرض الكاتب محملًا بخبرته في مجال تقنية المعلومات كيف يمكن للإنسان وضع خطة لذلك[1].

(1) Forbes, Brad Loomis, MAY 21, 2014.

فيما يلي النقاط الأساسية لكي تساعدك في التحضير لخطة طوارئ رائعة -الخطة لا الطوارئ نفسها بالطبع- يمكن الاعتماد عليها بشرط إعدادها بشكل جيد.

١- التوثيق لكل خطوة بتفاصيلها

التوثيق الكتابي هو أول وأهم خطوة في العملية كلها؛ لعدم ترك شيء للظروف أو الصدف؛ حيث إن النجاة أو تقليل المخاطر يعتمد بصورة أساسية على سرعة وحسن التصرف، الذي قد لا يتأتى للإنسان في حالة الطوارئ، وقد يؤثر على طريقة التفكير العقلانية في بعض الأحيان؛ لذا من الأهمية بمكان توثيق الخطة والتعديل عليها من فترة لأخرى، تبعًا لما يعنّ للإنسان من أفكار جديدة تساعده أكثر على تجاوز المحنة.

كما أن تعميم هذه الخطة على الأقارب والأصدقاء مهم جدًّا؛ لأنه في حالة وقوع كارثة معينة قد لا تستطيع الاتصال بهم وبالتالي المخاطر ستتضاعف بالنسبة لهم؛ لعدم إبلاغهم بالتدرب والاستعداد للخطوات القادمة، ولابد بالطبع من الاحتفاظ بنسخة مطبوعة دائمًا.

٢- تحديد مفهوم المخاطر المحتملة

من المهم جدًّا لمعرفة كيفية مواجهة خطر ما، تحديده أولًا ليتسنى لك التعامل مع كل حالة تبعًا لعواقبها.

فمثلًا التعامل مع خطر في حالة غزو دولتك، يختلف عن طريقة التعامل في حالة حريق المبنى الذي تعيش فيه؛ حيث إن لكل حالة طريقة تعامل مميزة تختلف عن الحالات الأخرى.

ويمكن تقسيم المخاطر إلى:

مخاطر طبيعية: فيضان- زلزال- حرائق (طبيعية)- جفاف- انزلاقات أرضية...إلخ

مخاطر من صنع الإنسان: حروب- تلوث مفاجئ (غاز- إشعاع- كيميائي- بيولوجي)... إلخ

٣- معرفة متى يمكنك أن تعلن أنك في حالة كارثية

الأمر المهم لبدء أي إجراءات، هو معرفة متى يمكنك أن تبدأها من الأساس، قد يستمر الإنسان في حالة من الإنكار بالرغم من غرقه لأذنيه في المشاكل؛ مما يمنعه من البدء بشكل سليم في إجراءات خروجه منها وحلها؛ لذا من الضروري أن يكون للإنسان الشجاعة في البدء في حل مشكلته قبل تفاقمها للحد من الأضرار المترتبة.

٤- معرفة وتحديد المصادر التي يمكن الاعتماد عليها

◉ **الوثائق الرسمية**: مثل وثائق الهوية والميلاد ورخصة القيادة وجوازات السفر، ويمكن حمايتها بوضع الأصول في حافظة مضادة للماء للمحافظة عليها من التلف، بالإضافة لطبع نسخ متعددة لنفس الوثائق ووضعها مع أفراد العائلة لضمان وجود نسخ منها، مع مراعاة أخذ نسخ إلكترونية منها ورفعها في أحد مواقع التخزين السحابية (كجوجل درايف أو ميكروسوفت ون درايف).

◉ **الحالة الصحية لكل فرد في العائلة**: إذا كان هناك فرد في العائلة يعاني من حالة صحية تحتاج لعناية معينة، يجب الاحتفاظ بنسخة عن حالته ويمكن حفظها بنفس الطريقة في النقطة الأولى.

◉ **الوثائق المالية والأصول**: بالنسبة للوثائق، فيُحتفظ بها في نفس الحافظة وأيضا حفظها إليكترونيًّا كما سبق شرحه، مثل الرصيد البنكي، ملكية العقارات والأراضي، السندات، أما بالنسبة للمعادن الثمينة والمجوهرات أو النقود السائلة فتحفظ في صندوق آمن يسهل حمله في أي وقت.

◉ **جهات الاتصال**: طباعة ورقة بأسماء وأرقام هواتف وعناوين المنزل للأقارب والأصدقاء المقربين، وبالطبع جهات الاتصال على الهاتف يتم حفظها آليا عن طريق ربطها بحساب جوجل مثلًا في حالة فقد الهاتف نفسه.

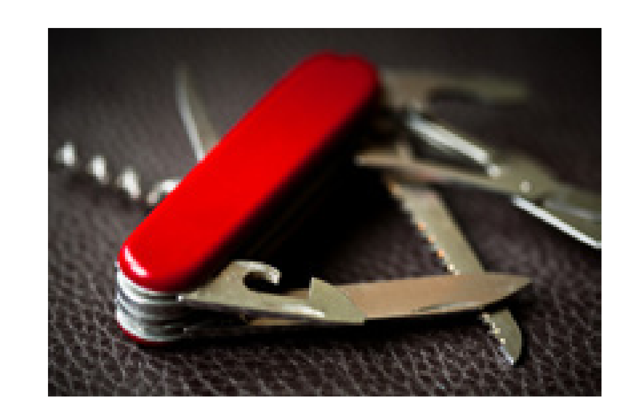
◉ **البيانات الرقمية**: جميع البيانات الرقمية على أجهزة الحاسوب المختلفة (المهمة منها بالطبع، أفلام الكارتون مثلًا ليست أولوية في حالة الكارثة) يتم حفظها عن طريق شراء مساحة تخزين إضافية على أحد مواقع التخزين السحابية المشار إليها سابقًا.

◉ الاحتفاظ في المنزل بصيدلية صغيرة لعلاج الحالات الطارئة؛ لحين الحصول على رعاية طبية احترافية (جروح قطعية- كسور- حروق- حساسية من مواد معينة) بالإضافة لكتاب للإسعافات الأولية.

◉ الاحتفاظ بمخزون من الطعام عالي السعرات الحرارية والبروتين لمدة شهر -أسبوع بحد أدنى- ويتم تجديد الكمية قبل انتهاء تاريخ صلاحيتها، مثل (ألواح البروتين- معلبات اللحوم والتونة- زبدة الفول السوداني- بسكويت- عصائر طويلة الأمد- طعام للرضع- مكسرات- فواكه مجففة) مع مراعاة وجود حساسية معينة لدى أحد أفراد الأسرة ضد أي أطعمة.

◉ الاحتفاظ بمستلزمات الأطفال والرضع في حالة وجودهم (مكملات غذائية- حفاضات- حليب مجفف- مستلزمات للعناية بالبشرة والحساسية). يمكن الاطلاع على المزيد في المرجع رقم ٦.

◉ الاحتفاظ بمخزون من الماء الزلال يكفي لمدة شهر بحد أدنى للاستخدام، بحيث لا يتم استخدامه للطهو أو النظافة الشخصية، والحساب هو جالون من الماء لكل شخص يوميًّا.



◉ وسائل للعناية الشخصية بالجسم بدون استخدام الماء، (المستحضرات الكحولية مثلًا) يمكن استشارة الصيدلي.

◉ قناع للغازات السامة إن توفر، أو على الأقل للأتربة.

◉ أدوات ذات استخدامات متعددة، ويفضل الحصول على سكين متعدد الاستعمالات، مثل سكين الجيب السويسري.

◉ مصدر للإنارة والطاقة يمكن شحنه (طاقة شمسية- مولد ديزل- بطاريات قابلة لإعادة الشحن شواحن يدوية Hand Crank Chargers).

◉ وسيلة للاتصال لا تعتمد على مزود الخدمة في حال انقطاع الخدمة كليًّا (ووكي توكي مداه بعيد نسبيًّا).

◉ شراء جهاز تحديد للمواقع غير مرتبط بخدمة الهاتف بالإضافة إلى خريطة ورقية مطبوعة، وتحديد مكان للتلاقي في حالة الانفصال وقت الخطر.

◉ إبقاء مبلغ من المال يكفي لشراء الأساسيات لمدة محدودة، في حالة وجود عطل تقني في أجهزة الصرافة أو مانع يمنع البنوك من تقديم خدماتها.

◉ وجود خزانة مضادة للنيران في المنزل، لحفظ الوثائق والنقود وغيرها، بالإضافة لحفظها في حافظة مضادة للماء كما سبق في حالة غمر الخزانة بالمياه.

◉ الاحتفاظ بنسخة إلكترونية من جميع الوثائق السابق ذكرها على وسيط تخزين، ويفضل أن يكون مضادًا للماء، وحفظها في الخزانة بالمنزل، مع الأخذ في الاعتبار وجوب القيام بتشفير البيانات المخزنة حتى لا يتم الاستفادة منها في حال فقدانها.

◉ استخدام مضاد فيروسات للأجهزة، وزيادة الوعي بالأمن المعلوماتي؛ لتلافي حدوث هجوم على أجهزتك الشخصية، مما يؤدي إلى فقد أو تسريب معلومات خاصة أو مالية، وهو ما يعتبر "كارثة أو" أيضًا.

◉ الحصول على مطفأة حريق في المطبخ على الأقل، بالإضافة لقماش مضاد للنيران للمساعدة في الإطفاء.

◉ تركيب مستشعرات دخان للتنبيه قبل تفاقم الحريق.

◉ أعواد ثقاب مضادة للبلل.

◉ أغطية مقاومة للظروف الجوية القاسية، وأكياس نوم، وملابس إضافية (ملابس خارجية- ملابس داخلية- جوارب مع مراعاة الطقس في دولتك) توضع في أكياس مضادة للماء لحمايتها من البلل.

◉ كوابل لشحن بطارية السيارة في حالة الاحتياج بالإضافة إلى جاروف لإزالة الرمل أو الثلج.

٥- نقاط يجب تضمينها في خطة الطوارئ

الخطوات اللاحقة هي التي تُبنى عليها خطة الطوارئ نفسها، وهي تتضمن تغيير بعض السلوكيات والعادات لزيادة الجهوزية وحسن التصرف في حالات الخطر. أمثلة على ذلك:

◉ تحديد الأماكن التي يمكن اللجوء إليها بسرعة في حالات الخطر، وطريقة الوصول إليها، والتأكد من أن كل فرد مشمول في خطة الطوارئ يعرف أين عليه التواجد وكيفية الوصول إليها.

◉ معرفة مخارج الطوارئ في مكان العمل/ المنزل/ المدرسة للأطفال.

◉ معرفة مداخل ومخارج المدينة والطرق الأساسية، للوصول إلى الأماكن التي يتواجد بها الأفراد المشمولون بخطة الطوارئ؛ ليسهل الوصول إليها وعدم الاعتماد كليًّا على وسائل تقنية كخرائط جوجل مثلًا.

◉ في حالة الطوارئ وسيلة الاتصال المفضلة طبقًا لما تذكره هيئة إدارة الطوارئ الفيدرالية الأمريكية، هي الرسائل النصية، لأنها تحتاج لقدر أقل من البيانات، وفي حالة عدم توافر الخدمة فإن الرسالة يعاد إرسالها تلقائيًّا حين توافر التغطية، ويجب الاتفاق على إرسال رسالة بأقصر عدد ممكن من الحروف تحوي معلومات كافية؛ مثل: (أنا بخير في المدرسة)؛ حيث توضح الرسالة حالة الفرد ومكان تواجده ليسهل الالتقاء به.

◉ إبقاء مكالمات الهاتف مختصرة بقدر الإمكان، مع إعطاء معلومات كاملة وصحيحة؛ للتقليل من استهلاك البطارية والضغط على شبكة مزود الخدمة، ومراعاة عدم تحميل أي فيديوهات أو ملفات كبيرة الحجم، مما يساهم في جعل شبكة مزود الخدمة أكثر كفاءة لاستخدام الآخرين للاتصال بخدمات الطوارئ.

◉ المحافظة على عمر شحن بطارية الهاتف، بتقليل الإضاءة، وإبقاء الهاتف على وضع الطيران، وغلق جميع البرامج غير الضرورية.

◉ التدرب على الإسعاف الأولي، ويمكن الحصول عليه في أي معهد طبي قريب.



◉ إغلاق مصادر إمداد المنزل/ المبنى لكل من الماء والغاز الطبيعي والكهرباء؛ لمنع تفاقم مستوى الخطر، ويتطلب ذلك معرفة جيدة بالصمامات الرئيسية وليست الفرعية المغذية للمبنى ككل.

◉ متابعة التحذيرات المختلفة من السلطات ووسائل الإعلام المحلية والأرصاد الجوية، والتسجيل في القائمة البريدية لها للحصول على التحديثات أولًا بأول.

◉ الحفاظ على مخزون الأطعمة و الأدوية و المستلزمات الأخرى، والتأكد من سلامتها وحفظها بطريقة جيدة.

◉ يمكن تسخين الطعام المعلب، بشرط إزالة الملصق وغسل العلبة وفتحها قبل التسخين، حتى لا يؤدى الغاز بداخلها إلى انفجارها.

◉ عدم استبدال الماء الزلال بالمشروبات الغازية، أو المحتوية على كافيين، حيث إنها تزيد من قابلية نقص الماء في الجسم مما يؤدي إلى الشعور بالعطش.

◉ في حالة نفاد كمية المياه النقية والاضطرار إلى استخدام ماء غير معلوم مدى صلاحيته للاستخدام، يمكن اتباع الطرق التالية ويفضل القيام بها جميعًا للتأكد من قتل معظم الجراثيم، بالإضافة للملوثات الأخرى كالمعادن والأملاح والكيماويات:

- غلي الماء مع تركه يبرد قبل شربه، ويمكن إضافة عبوة أكسجين لتحسين الطعم.
- استخدام الكلورين ٢، ويمكن عمل ذلك باستخدام المبيّض المنزلي العادي (كلوركس)، الذي يحتوي على نسبة ٥,٢٥ إلى ٦٪ من هيبوكلورايت الصوديوم -وعدم استخدام مبيضات تحتوي على مواد معطرة أو مثبتات للون او أي منظفات إضافية- حيث تقوم باضافة ١٦ قطرة أو ثمن ملعقة شاي لكل جالون ماء، ثم تقلب ويترك لمدة ٣٠ دقيقة. يجب أن تلاحظ رائحة كلور خفيفة، إذا لم توجد تعاد نفس العملية مع ترك الماء ١٥ دقيقة، إذا لم تشم رائحة الكلور يتم صرف الماء وعدم استخدامه.
- تقطير الماء، وهي أنجع الطرق وأكثرها كفاءة، ويمكن عمل ذلك إما بجهاز يشترى، أو في حالة عدم توافره يمكن عمله بأدوات منزلية بسيطة ويوجد فيديوهات تشرح ذلك.

٦- معرفة الحد الأدنى للتعافي

أي ما هو الحد المقبول بالنسبة لك لكي تعلن تجاوز حالة الطوارئ وزوال الخطر، والرجوع بشكل ما إلى الحالة الطبيعية.

٧- التخطيط للعودة للحالة الطبيعية بأسرع ما يمكن

أهمية الأمر تكمن في إزالة الضغط النفسي والبدني معًا في ظل استمرار إعلان حالة الطوارئ كما هي الحال بالنسبة للدول، حيث إنه في ظل تخفيف أو إنهاء حالة الطوارئ الإنسان يستطيع التفكير بشكل خال من التوتر وتصبح قراراته أقل تسرعًا.

٨- التدرب بشكل دوري على الخطة وتحديثها

التدرب بشكل دوري ومراجعة الخطوات يؤدي إلى تعديل الخطة بشكل مستمر، يتيح قدرًا أكبر من السهولة في التنفيذ بعد اكتساب الخبرة، كما أنه يقلل من الوقت الضائع، خصوصًا في الدقائق الثمينة الأولى في حالة حدوث الطارئ.

كما أنه لا بد من تنفيذ الخطة الموضوعة بشكل كامل، عن طريق محاكاة الخطر؛ لضمان معرفة كل فرد مشمول بالخطة بدوره بشكل جيد، مما يرفع من الجاهزية والاستعداد.

References – المراجع

1. Forbes, Brad Loomis, MAY 21, 2014.
2. http://www.disaster-survival-resources.com
3. https://www.ready.gov/food
4. http://www.fema.gov/
5. http://www.operationhope.org/
6. http://www.cdph.ca.gov/healthinfo/healthyliving/childfamily/Pages/EmergencyPreparednessInfantandYoungChildCareandFeeding.aspx
7. http://www.google.org/crisisresponse/about/index.html
8. http://www.youtube.com/fema



آليات السيطرة من فرعون إلى اليوم

د. محمد فرحات

هناك ألغاز كثيرة في تاريخ البشر، منها ما لم نتوصل إلى حله إلى الآن، ومنها ما لم نشغل بالنا بحله رغم وضوح الإجابة عنه أمام أعيننا. ومن الألغاز التي شغلت بالي كثيرًا: كيف بلغ الحال بواحد من البشر أن يسيطر على شعب بأكمله، ويصل النهايةَ في إحكام تلك السيطرة، حتى إنه يعلن لهؤلاء البشر أنه ليس بشرًا مثلهم، بل هو إلٰه فوقهم، فيتبعونه، وينقادون إليه بدلًا من أن ينكروا عليه؟!

قبل الخوض في تفاصيل الكلام لابد من التنبيه على أمر مهم: أن البشر في طبعهم لا يحبون العلو عليهم، نرى هذا واضحًا في مقولة أكابر المجرمين من قوم نوح -عليه السلام - حين مضوا في خطتهم لتشويه نوح -عليه السلام- وتشويه دعوته، ومن التكتيكات التي لجؤوا إليها: الادعاء بأنه مجرد رجل يريد العلو، و لقد حكى القرآن مقالتهم في قوله تعالى : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] قال ابن جزي: "﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ﴾ أي يطلب الفضل والرياسة عليكم"[١]. فما قالوا ذلك إلا "إغضابًا للمخاطبين عليه -أي على نوح عليه السلام- وإغراءً لهم على معاداته"[٢]. فالرغبة في العلو تثير الحنق وتورث الضغينة، فما من بشر سوي يقبل بأن يعلو فوقه بشر مثله.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل: ٢/٥٠.

(٢) روح المعاني للآلوسي: ٩/٢٢٧.

والعجيب أن هذا هو عين ما اتهم به قومُ فرعون موسى وهارونَ عليهما السلام، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، فكان من أسباب رفضهم للدعوة اتهام هذين النبيين بأنهما يريدان العلو عليهم، وهم الذين خضعوا لعلو بشر منهم، حتى صار فيهم إلٰهًا! فهذا يعود بنا للسؤال: كيف حقق فرعون هذا النجاح؟ وكيف وصل إلى ما وصل إليه من هذا العلو؟ دعونا نحاول تحليل المسألة من خلال ما توفر لنا في نصوص الوحي:

أولاً: امتلاك القوة المادية:



مما لا شك فيه أن الحضارة المصرية كانت في أوج ازدهارها في ذلك الوقت، وكان عرش فرعون لا يعني مجرد امتلاك حق السيطرة على بقعة محدودة من الأرض، بل كان فعليًّا يمثل رمزًا من رموز السيطرة المطلقة، والهيمنة على البشر، ترى هذا واضحًا في ثنايا خطاب فرعون لقومه ليثبت لهم أنه صاحب الحق، بل هو الحق ذاته، حين قال: ﴿يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

فربط تلقائيًّا بين امتلاك القوة المادية، المتمثلة في مُلك مصر في ذلك الزمان، وبين صدقه في دعواه الفوقية والعلو على البشر كلهم! وهذا من أعجب الحجج! قال الآلوسي: "ولا يخفى ما بين افتخار اللعين بمُلك مصر ودعواه الربوبية من البعد البعيد، وعن الرشيد أنه لما قرأ هذه الآية قال لأولِيَنَّها -يعني مصر- أخس عبيدي، فولاها الخطيب وكان على وضوئه، وعن عبدالله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال: هي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾! والله لهي أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه"[١].

إن مجرد تملك فرد واحد من البشر لشيء من متاع الدنيا يجعله يعلو ويتكبر في نفسه، فلا يقبل الحق، ولا ينصاع لأحد من الخلق. قال السعدي في تفسيره لقوله تعالى ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٤-١٥] "أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه"[٢].

(١) روح المعاني: ٨٩/١٣.
(٢) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن (تفسير السعدي)، ص ٨٧٩

وترى هذه سمة مطردة في الخطاب القرآني: أن أصحاب القدرة المادية أبعد عن قبول الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ [المزمل: ١١]، فكيف بمن امتلك أكبر قوة مادية في زمانه؟

ثانيًا: امتلاك القوة الروحية:

إن ادعاء الربوبية لا يمكن أن يكون مجرد دعوى متفردة دون أن يعضدها منهج متكامل يرسم ملامح ديانة متعاضدة الأركان، لها طقوسها وتفاصيلها التي تصب في النهاية في مسار علو ذلك الطاغية، وبالطبع لابد لهذا الدين من هيئة ومؤسسة رسمية ترعاه وتنظم تفاصيله، ويكون لها السدنة والكهنة الذين يسهرون على حراسته، ويقومون بخدمته.

وهذا ما تراه واضحًا في خطاب فرعون لقومه، عندما خوفهم من موسى -عليه السلام - بأنه سيبدل ويغير "دينهم" ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: ٢٦]، وإن كان الخطاب القرآني لا يوضح ملامح هذا الدين بوضوح، لكن عند مطالعة كلام أهل التفسير تجد أن الأمر كان مرتبًا، وله من التفاصيل ما تجعل دعوى الربوبية الغريبة هذه متماسكة، ولها غلاف منطقي يُحكِمُها، من ذلك مثلًا: أنهم قالوا إن دين فرعون كان يشتمل على آلهة تدبر شؤون العالم السفلي، وفرعون هو المدبر للعالم العلوي بما يملكه من أسباب القوة[١]، وقيل: بل كانت تلك الآلهة المتعددة هي وسائط و شفعاء، وفرعون هو الرب الأعلى[٢]، لهذا كانت مقولته التي ذكرها القرآن:﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، و قيل غير ذلك.

ولعل الأقرب ما ذكره الطاهر ابن عاشور: "وكان القبط مشركين يعبدون آلهة متنوعة من الكواكب والعناصر، وصوروا لها صورًا عديدة مختلفة باختلاف العصور والأقطار، أشهرها (فتاح) وهو أعظمها عندهم وكان يعبد بمدينة (منفيس)، ومنها (رع) وهو الشمس وتتفرع عنه آلهة باعتبار أوقات شعاع الشمس، ومنها (ازيريس) و(إزيس) و(هوروس) وهذا عندهم ثالوث مجموع من أب وأم وابن، ومنها (توت) وهو القمر وكان عندهم رب الحكمة، ومنها (أمون رع) فهذه الأصنام المشهورة عندهم وهي أصل إضلال عقولهم. وكانت لهم أصنام فرعية صغرى عديدة مثل العجل (إيبيس) ومثل الجعران وهو الجعل، وكان أعظم هذه الأصنام هو الذي ينتسب فرعون إلى بنوته وخدمته، وكان فرعون معدودًا ابن الآلهة وقد حلت فيه الإلهية على نحو عقيدة الحلول، ففرعون هو المنفذ للدين، وكان يعد إله مصر، وكانت طاعته طاعة للآلهة"[٣].

(١) نظم الدرر: ٣٤/٨، روح المعاني: ٢٩/٥.
(٢) زاد المسير: ١٤٥/٢، روح المعاني: ٣١٦/١٢، تفسير البغوي: ٢٦٧/٣.
(٣) التحرير والتنوير: ٥٩/٩

لكن المهم هنا: أن إحكام السيطرة على مقاليد الأمور الدينية كانت من أهم قواعد السيطرة على الناس وإخضاعهم لهيمنته. والقارئ في تاريخ الحضارة الفرعونية يلمس بوضوح بروز دور الكهنة في تلك الحضارة، و تأثيرهم البارز في شؤون الحكم والسياسة.

ثالثًا: السحر:

من الملامح العجيبة لقصة فرعون مسألة السحرة الذين واجهوا موسى -عليه السلام-؛ فالمتدبر للقصة لا بد له من السؤال المنطقي: لماذا وُجد السحر والسحرة في منظومة فرعون أساسًا؟

دولة كانت متقدمة جدًّا في مجال العلوم والفنون المختلفة، بمقاييس زمانهم، فمن المفترض أن تكون دولة بمثل هذا التقدم التقني على نفس المستوى من التقدم الثقافي، والمعرفي؛ فلماذا إذًا اللجوء للدجل والشعوذة، واعتماد السحر؟ إن تتبع الخطاب القرآني يعطي صورة ذهنية واضحة عن تمكن السحر في هذه الدولة، فلقد كان فيها عددًا هائلًا من السحرة، حتى إن فرعون لما أرسل في ربوع مصر ليحضر السحرة الذين سيواجهون موسى -عليه السلام- قيل: بلغ عددهم ثمانين ألفًا![1]، فضلًا عن تمكنهم في السحر حتى وصف الساحر منهم بأنه ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧].

الحل المنطقي عندي: أن هذه الدولة رغم تقدمها المادي الهائل إلا أنها خضعت لهذه المعتقدات الفاسدة، واتبعت دينًا أقل ما يوصف أنه محض هراء لا يستسيغه عقل ولا تتقبله فطرة سوية؛ فهنا كان دور السحر والسحرة أن يقدموا "المهضمات" التي تجعل النفوس تتقبل ذلك الهراء، وما كان ذلك ليتم إلا بخطف العقول في غياهب السحر والدجل؛ لهذا كان وجود السحر مفروضًا بالقوة، وكان تعلم السحر جزءًا من هذا الكيان الغاشم، قال سحرة فرعون لما آمنوا: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ [طه:٧٣].

قال بعض المفسرين: كان يأخذ الأطفال ويكرههم على تعلم السحر وامتهانه[2].

ولا زالت تلك سنة كل طاغية، فلا طغيان بلا سحر، وإن تبدلت أنواع السحر وتغيرت أشكاله، فربما تجده الآن في سحر كلمات تُلقى على الشاشات، وكما قال رسولنا -صلى الله عليه و سلم-: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا» [رواه البخاري: ٥١٤٦].

(١) تفسير الطبري: ٣٥٥/١٠.
(٢) مفاتيح الغيب: ٧٨/٢٢.

رابعًا: امتلاك القوة العسكرية:

بالطبع لن تكتمل صورة القوة القاهرة التي يتم معها إحكام السيطرة إلا بوجود قوة بطش كبيرة، وهذا ما امتلكه فرعون بالفعل، فلقد اشتركت قوته العسكرية في تعضيد ملكه، وإحكام سيطرته، وبالطبع كانت إحدى دعائمه في الوقوف أمام الحق، ورفض الخضوع للإله الحق، لهذا أشرك الخطاب القرآني جنودَ فرعون في عاقبة تكبره وعناده، قال تعالى : ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]، وقال تعالى:﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨]. وطالما توفرت القوة، وكانت النفس طاغية، فماذا يمنعها من البطش؟ لهذا تجد الهول في ما نقله أهل التفسير عند كلامهم على قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص:١٢]، و كيف كان يبطش بالناس ويعذبهم[١].

هذه هي أبرز معالم منهج السيطرة الذي انتهجه فرعون، وصارت تلك هي المعالم لمنهج كل فرعون؛ فلكل عصر فرعون خاص به، تنمو بداخله بذرة الطغيان، فإذا استكمل أسباب القوة واستشعر علوه على غيره طغى وتجبر، كما قال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦-٧].

وهذه ليست سمة خاصة بالأفراد فقط، بل وبالدول، والحضارات، كما نرى الآن في فرعون هذا العصر: الحضارة المادية المتوحشة، التي استكملت أدوات السيطرة، فطغت، ونادت بانتهاء عصر الرب، وكأنها تعلن للعالم من جديد: أنا ربكم الأعلى!

(١) انظر: الطبري: ١٥٩/٢١، زاد المسير: ٥٦١/٣، روح المعاني: ١٦٤/١٢.



كي لا يكون ابنك خانعًا

عبد الرحمن ضاحي

مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما وهو يلعب مع رفاقه من الصبيان، فأسرعوا يلوذون بالفرار هيبةً لعمر بن الخطاب رضي الله وإجلالًا له، في حين ثبت عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، ولزم مكانه، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما لك لم تفر معهم؟ فقال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: "لم أجرم فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقة فأوسع لك"[١].

النفس السوية الشجاعة التي واجه بها ابن الزبير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لم تكن وليدة اللحظة، بل نتجت عن عملية غرس ورعاية لمعاني الكرامة وعدم الخنوع في شخص عبدالله بن الزبير، فأثمرت ذلك الموقف الشجاع، في حين قحطت بها نفوس أقرانه من الأطفال. وعلى تلك الثمرة المنشودة يجب أن نربي أبناءنا ونغرس فيهم تلك المعاني ليستعلي بنفسه على الدنايا والسفاسف ويطالب بحقه بلا وجل أو خوف، ويرفض الظلم أينما حل ويثور عليه، وتُبنى شخصيته على المبادئ والقيم، لا ترتبط بمصالح أو أعطيات، وتتمركز شخصيته مع الحق تدور معه حيث دار بوضوح وثبات. ولكي نخرج أمثال عبدالله بن الزبير علينا:

أولًا: أن نبدأ في الغرس الإيماني المبكر، والعناية بمسألتي القضاء والقدر والرزق؛ لأن أغلب من يخنع يفعل ذلك لهذين السببين، فإما خائفًا على رزقه يخشى الفقر والتضييق، أو يظن أن الخنوع سيسلمه من قضاء الله المحتوم وستأتيه السلامة، ويدحض هذا كله تربية الابن على هاتين الركيزتين عـن طريق الشرح المبسط

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٣ ص٤٠٧.

لآيات القرآن مثل أواخر سورة لقمان والذاريات، وأحاديث النبي المتعلقة بذلك أيضا مثل حديث: "يا غلام إني أعلمك كلمات". لابن عباس لما كان رديفًا للنبي صلى الله عليه وسلم، كما يمكن إعطاؤه أمثلة عملية عن طريق المواقف المفتعلة المرتب لها سلفًا، أو سرد القصص التي تغرس تلك القيم والمبادئ في نفس الولد.

فقصة سيدنا ابراهيم كل مواقفها تغرس قيمة التعلق بالله وعدم إلقاء كامل الاعتماد على الأسباب المادية ونسيان مسبب الأسباب، فشجاعته بمواجهة النمرود ومحاججته له، ومن قبلها مواجهة والده بالأدب والدماثة، ومواجهة قومه بالمنطق والعقل، وبناؤه لبيت الله، وتركه لزوجه وولده في الصحراء، وخروج بئر زمزم من أجلهم، وإلقاؤه في النار التي كانت بردًا وسلامًا عليه، كل تلك المواقف تبني في ذهن الولد جسور التعلق بالله وعدم الاتكال بالكامل على الأسباب المادية؛ مما يجعله شجاعًا مقدامًا لا يهاب مواجهة الظلم، ومدركًا أنه سائر في فلك قدره الذي قدره الله له.

وكي نثبت هاتين الركيزتين في مكانهما الصحيح في نفس الطفل، يجب أن يكون الغرس بشكل مبكر فتكون له مثل المناعة ضد أمراض الخنوع والجبن، فكما قال الأستاذ عدنان باحارث في كتابه (مسؤولية الأب المسلم) إن الطفل يتعلم في سنواته الأولى أكثر بكثير مما يتصوره الآباء، وإن العادات يمكن اكتسابها بسهولة كلما كانت سنه أصغر، فإن ٩٠٪ من العملية التربوية تتم في السنوات الخمس الأولى. (وهذا أيضًا ما أكدته الدراسات والبحوث بأن الأساس الأول للضمير الإنساني خلال السنوات القليلة الأولى من عمر الطفل)[١].

ثانيًا: فإن ضمان عدم الاستبداد داخل المجتمع يأتي من إصلاح الأفراد وتربيتهم على العزة والكرامة والثقة بالنفس؛ لأن الأسرة هي المُركب الأساسي للمجتمع، ومن مجموعها تتشكل الدول والمجتمعات، وهي صمام أمان العدل؛ لأن الثورة على الظالم وإنصاف المظلوم لا يأتي إلا من شخص مستقل الشخصية شجاع لا يخشى في الله لومة لائم، وممارسة الطغيان الأسري من صياح وضرب وقمع للآراء وسلب الثقة بالنفس، يحطم فضائل النفس، ويكرس فيها الصفات السلبية، مثل الجبن والخنوع، ويغرس فيها طباع العبيد!

(١) مقال للدكتورة ليلى كمال الدين على موقع gulfkids.com



ومن الممكن أن نستعين بالكثير من الوسائل التي تغرس في نفوس أبنائنا تلك المحامد، مثل رواية القصص التي تتحدث عن الشجاعة والإقدام، ونصرة المظلوم، وانتصار الخير على الشر لهم، والابتعاد عن قصص الرعب والتخويف، وتعليمه استقلال الشخصية وإكسابه الثقة، من خلال الاعتماد على نفسه وإسناد المهام إليه، والتجاوز عن بعض أخطائه في طريق اعتماده على نفسه، بالإضافة إلى تعويده على الشجاعة الأدبية ومواجهة الناس بالتحدث، من خلال تكليفه أمام إخوانه أو أصدقائه بإلقاء كلمة أو إدارة جلسة، وإبداء الحرص له على سماع رأيه في المواضيع المختلفة، حتى لو قال كلامًا ليس معتبرًا، كما يجب أن يتحلى الآباء أنفسهم بالشجاعة وحسن التصرف في المواقف أمام أبنائهم؛ كي يقتدوا بهم؛ فإن المواقف العملية أبلغ كثيرًا من الكلام النظري كما قيل: فعل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل لرجل). كما يجب التوضيح للولد أن الشجاعة ليست مرادفًا للتهور؛ لكي ينضبط عنده الميزان، ويحرص على سلامته، ولا يرمي نفسه في التهلكة بدعوى الشجاعة وعدم الخنوع.

وكما أشرنا أن من الأمور المعينة أيضًا على تربية الولد على معاني الكرامة والعزة، الابتعاد عن الضرب والإهانة والصياح في كل صغيرة وكبيرة، فالأبناء يتفاوتون في طرق الإرشاد، منهم من يصلحه الهجر، ومنهم من يصلحه الزجر، ومنهم من يصلحه التلميح فقط، ومنهم من يصلحه الضرب وهم قليل، ولكن كما أنها وسائل للإصلاح فيجب أن تتأطر ضمن إطار الإصلاح دون خسائر بدنية أو نفسية، "فالعقوبة في سياق التربية أشبه (بالتحويلة) نخرج فيها عن الطريق لنعود إليه بعد انتهائها، وكلما كانت التحويلة أقصر وأنجح كان ذلك أفضل)[1]. فيجب أن يلجأ الوالدان لتلك الوسائل بعد استنفاذ جميع الوسائل التأديبية الأخف منها، كما يجب في حالة اللجوء إليها ألا يعاقب الولد أمام إخوانه أو أمام أشخاص آخرين، كما يجب ألا يكون بشكل مُهين وينقص من قدر الولد ويسلب منه ثقته بنفسه، وكل ذلك يستطيع المربي فعله باستحضار أن هدفه تعديل السلوك وليس التشفي.

الأمر الثالث الذي نود الإشارة إليه هو التربية الفكرية السليمة، وبمعنى أدق المحافظة على الفطرة السليمة التي تميز الظلم عن العدل، وتميز بين المروءة والخسة، والحفاظ على فطرة الطفل خاصة الذي يعيش في مجتمع يئن من الاستبداد؛ فـ"ليس أشد إفسادا للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد: استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمردًا حين يرفع عنها السوط، وتبطرًا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة"[2]. وانتكاس الفطَر التي لا تنكر منكرًا ولا تعرف معروفًا هو نفسه سبب رئيس في استبداد الحكام.

(١) عبد الكريم بكار، القواعد العشر ص١١١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١ ص٧٣.

وبما أن الدول المسلمة تتعرض للاستبداد على مدى مئات السنين، فقد فسدت ويا للأسف فطر الكثير، وظهر ذلك جليًّا في ثورات الربيع العربي وما تبعها من انقلابات وثورات مضادة، فيجب على الوالدين تحصين الأولاد بالتربية الفكرية السلمية التي تحفظ عليهم نقاء فطرتهم، التي هي ميزان الحق لأي إنسان سوي، عن طريق النقاش في أمور الأمة وتوعية الطفل بشكل دائم بما يجري حوله من مجريات سياسية حول العالم بالطبع بما يتناسب مع سنه، لأن بذلك تتكون عنده أرضية فكرية صلبة يستطيع من خلالها اتخاذ القرار السليم الذي يميز به الظلم من العدل، ولست أنسى مقولة صديقي إن توعية والديه له بجرائم حسني مبارك ومشاهدته الدائمة معهم للأخبار ومتابعة فساده وفساد حاشيته =كانت لها فضل كبير عليه وقت الثورة حيث إن فطرته السلمية أرشدته فلم يتأثر بفتاوي الخنوع والورع البارد التي أثنت الناس عن الخروج محاولةً شرعنة الظلم والاستبداد.

من الأشياء المعينة أيضًا على التربية الفكرية السلمية توعية الولد بتاريخ أمته وحضارته العظيمة التي ينتمي إليها، وتأصيل تاريخ العداوة بين الإسلام والكفر وتوضيح أصل الصراع له، ولست أنسى قصة صديقي أيضًا الذي حكى لي تأثير المجلات الإسلامية التي كان يحضرها والده في البيت عليه، وكانت تحوي مشاهد من مذابح البوسنة والهرسك عام ١٩٩٥، وكيف أن تلك المشاهد أشعلت عنده جذوة الاهتمام بالعالم الإسلامي ومعرفة تاريخ الصراع، وهذا آخر يحكي عن تأثير قصص والده عن الأندلس وسقوطها وقراءته عن محاكم التفتيش التي أقامها الأسبان للمسلمين في الأندلس، وكيف أنها كانت حافزًا كبيرًا له لمعرفة تاريخ المسلمين وتأصيل مسألة العداء بين المسلمين وغيرهم من الأمم. وهذه التوعية تمنح الابن أو البنت أيضًا مناعة من الافتتان بالغرب، عندما يعرفون تاريخهم الدموي وحقيقة تقدمهم الذي قام على نهب ثروات الأمم الأخرى وإبادتها بأبشع الطرق، هذا التقدم المتجرد من الإنسانية مع الغير.

وقد يهيأ للبعض أن أبناءه قد لا يستوعبون ذلك الكلام أو أنه يفوق مرحلتهم العمرية، وبالطبع التوجيه الذي أشرت إليه لم أقصد أن يكون قبل مرحلة إدراك العالم والدول، وإدراكه لمعاني الظلم والعدل لكي يستوعب تلك الأمور، بالإضافة أن لكل مرحلة عمرية أسلوبها في توصيل المعلومات كما أشرنا، فصاحب العشر سنين يختلف عن ابن الثانية عشر، مختلف عن ابن السابعة عشر، زد على ذلك أن لكل شخصية طرقًا مفضلة في توصيل المعلومة لها، وهذه مهمة الأبوين لأنهم أدرى بما يناسب أبناءهم، والدليل الأكبر على خطأ تقديرنا لعقول ومستوى استيعاب أولانا مفاجئتهم لنا بكثير من الأسئلة التي تربكنا وتجعلنا نوقن أن الولد أذكى مما نتوقع!

ختاما يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣] قال أهل التأويل: "أي لا ترضوا بأعمالهم، أو لا تميلوا لهم فتمسكم النار". وهذا يوجب على كل مسلم رزقه الله الولد أن يربيه/ يربيها على قيم العزة وعدم الخنوع، وإنكار الظلم، للنجاة من النار؛ استجابة لأمر الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]



كان لرسول الله ﷺ الأسبقية في إرساء وابتداع العديد من المبادئ والأسس، التي تعتبر حاليًا قوانين في مجال الأمن السياسي، ولعل من أبرزها:

١- أهمية المعلومات وسرعة توافرها.
٢- الشائعات وكيفية مواجهتها.
٣- تنويع المصادر لضمان وصول أكبر قدر من المعلومات مع ضمان صحتها.
٤- دراسة أمنية للمنطقة وكذا الأراضي المحيطة بها مع معرفة المداخل والمخارج.
٥- استخدام ما يسمى بالشفرة وهي كلمة السر.
٦- كيفية الاستفادة من شخص معين وكيفية زرعه.
٧- كيفية توجيه المصدر ومتى يترك له حرية العمل والتصرف.
٨- أهمية دراسة ردود الفعل، سواء داخل المنظمات المناهضة، أو داخل المكان الأمني نفسه.
٩- استخدام سياسة تعميق الخلاف بين الأعداء.

السرية والمفاتحة والاستقطاب

أساس العمل الأمني السياسي وعموده الفقري هو السرية، والتي يؤدي التمسك بها لنجاح أي عمل أو أية مأمورية أو أية مهمة؛ حيث ولو كان الهدف في النهاية سيحظى بالعلانية، إلا أن السرية ستؤدي إما إلى نجاحه أو إلى فشله.

كان الرسول ﷺ يطبق مبدأ السرية في الجانب الأمني السياسي، في مكة خلال الدعوة، ثم في المدينة، ثم في حروبه ومعاركه المختلفة، إلى أن انتهت بفتح مكة.

والسرية: هي تحتم وجود أمر ما لا ينبغي لأحد الاطلاع عليه أو معرفته، حتى يأتي الوقت والظروف المناسبة لإعلانه بالأمر، وهذا لا يكون إلا بالتأكد التام من أن هذا الشخص لن يقوم بتسريب الخبر أو الموضوع لآخرين؛ مما قد يؤدي لإجهاض العمل قبل نجاحه.

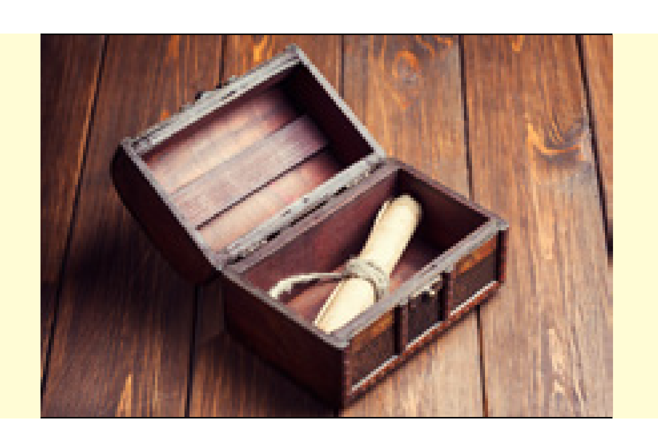
أما المفاتحة والاستقطاب: فهي كيفية استمالة شخص ما لدعوة ما، أو أمر ما، دون أن يخشى مما يسمى بردود الفعل أو تسريب السر، وفي المفاتحة يتم اختيار الوقت المناسب لإبلاغ الشخص بما يسمى بطبيعة المأمورية أو المهمة، مع أخذ الاحتياطات المناسبة في حالة عدم قبول الشخص لهذه الدعوة.

المعلومات

تقاس قوة أي جهاز أمني بما يملكه من معلومات، وكلًّا بحسب نوعه وتخصصه، وكلما ازدادت المعلومات أصبحت الخريطة الأمنية واضحة المعالم أمام مصدر القرار.

والمعلومات هي الكلام الصادق المؤكد وجوده والذي يؤيد أمرها أو ينفيه، وذلك بعكس الخبر الذي قد يحتمل الكذب ويحتمل الصواب، ومن هنا يقال في أجهزة الأمن المعلومة المؤكدة بالنسبة للأولى والشائعة بالنسبة للثانية.

أي جهاز أمني هو الأولى بالحصول على المعلومات اللازمة حتى يضمن نجاح واستقرار النظام السياسي، ولأن الأمن له قاعدة وهدف أساسي هو منع وقوع الجريمة وإذا وقعت ضبط مرتكبيها.



وسائل جمع المعلومات

لأجهزة الأمن السياسي العديد من الوسائل التي تلجأ إليها لجمع المعلومات، ولعل بعضها معروف والآخر غير معروف.

الوسائل المعروفة: الصحف والمجلات، سواء الحكومية أو المعارضة والمستقلة، وسائل الإعلام المختلفة من التلفزيون ووكالات الأنباء، الأحاديث الشخصية مع سائقي التاكسي والعاملين بالسنترال والحلاق والبائعين المتجولين وغيرهم، الكتب الدورية والإرشادية والتي يتم إرسالها بصفة شبه دائمة للجهات الأمنية.

الوسائل غير المعروفة: أدوات التنصت والتسجيل، المراقبات التليفونية والبريدية والشخصية، تقارير الرأي العام، التحليلات والدراسات، الأبحاث العلمية والأدبية، المصدر.

من هو المصدر؟

هو شخص ذو مهارة معينة وإمكانات عقلية غير عادية، أمكن زرعه أو تجنيده من خلال مجموعة معينة أو شخص معين لاستطلاع الأخبار. لا يشترط أن تكون المعلومات متكاملة أو مباشرة؛ بل تكون متناثرة أو جزئية، وفي كلتا الحالتين تعتبر استكمالًا لسلسلة يمكن إغلاقها، وهي مثل ضوء بسيط يؤدي لتحديد المسار، وكلما كان الضوء مكثفًا (المعلومات) كلما كان الطريق واضحًا محددًا.

أنواع المصادر:

١- مصدر دائم: ويكون موجودًا بمكان معين ومرتبطًا بالمقيمين أو العاملين فيه، ويمكنه من خلال ممارسته لحياته العادية الوقوف على أخبارهم. (ومثال ذلك العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه).

٢- المصدر المزدوج: وهو شخص أمكن استقطابه بوسيلة ما (المال - المنصب - الإقناع)، ويقوم بنقل معلومات غير حقيقية لمن أرسلوه بهدف تضليلهم، (ومثال ذلك سراقة رضي الله عنه في واقعة الهجرة).

٣- المصدر العرضي: وهو شخص يتصادف وجوده في مكان ما أثناء حدث معين، يمكن من خلال مناقشته الحصول على العديد من المعلومات، ومن تحليلها (العامل الإنساني) يمكن الوقوف على حقائق معينة، (مثال ذلك الأعرابي الذي قابل الرسول ﷺ بالصدفة قبل غزوة بدر واستفسر منه عن قريش، ولم يكن الأعرابي يعلم حقيقة الرسول ﷺ الذي نجح في الحصول على معلومات قيمة منه).

قاعدة الأوامر المختومة

من أهم وسائل أجهزة الأمن والمخابرات الحديثة، وهي عبارة عن مأمورية معينة محددة المكان والزمان، تكون مكتوبة داخل مظروف مغلق موضح فيه طبيعة المأمورية، ويُكلف المندوب بحمل هذا المظروف وعدم فتحه لأي ظرف أو اعتبارات، إلا في وقت محدد في مكان محدد. تستخدم هذه الوسيلة استنادًا لقاعدة السرية وأمن الحفاظ على المأمورية وطبيعتها، حتى لا تتسرب أنباؤها فتؤدي ليس فقط لفشل المأمورية، وإنما تؤدي لانتكاسة أمنية ونتائج عكسية. وباستعراض السيرة النبوية نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استخدم تلك القاعدة في سرية عبدالله بن جحش.

تحليل المضمون

ويقصد به فحص أي خبر أو معلومة يمكن من خلالها التوصل لحقيقة وضع معين، ومفتاح الوصول لهدف يمكن تحقيقه. أصبح تحليل المضمون علمًا بذاته يُدرس.

ودور إدارة تحليل المضمون تحليل أي خبر، والوصول به لأن يكون معلومة مؤكدة توضع أمام مصدر القرار، حتى يكون ملمًّا بكافة جوانبه السلبية والإيجابية.

المناقشة

تعتبر المناقشة أحد الوسائل الجوهرية التي تعتمد عليها الأجهزة الأمنية، وفكرة المناقشة تقوم على خلق حوار عام، داخله مجموعة أسئلة محددة يقوم رجل الأمن بإلقائها عفوية، ثم يستخلص منها المعلومات المطلوبة أو الجزء الأكبر منها.

ومن القواعد الأمنية التي أسس لها الرسول ﷺ أيضًا:

- ضرورة أن يستبعد أي موظف من عمله ممن هم في موضع الشبهات، سواء لقناعة ذاتية أو فكر مناهض أو صلة قرابة مع أي شخص مناهض.
- أن يحيط الرئيس نفسه بمجموعة أشخاص أمناء (مؤمنين)، وذوو علم حتى تكون المعادلة أهل الثقة مع أهل الخبرة.
- أن لا يكون العامل من ديانة أخرى تخلق في داخله دوافع مناهضة، تؤدي لإهدار مبدأ السرية والأمن.
- أن يكون الشخص على قدر عال من الثقافة والعلم؛ حتى يستطيع إنجاز ما يكلف به.

الشائعة

هي عبارة عن خبر غير حقيقي يتناوله الناس في فترة معينة لظروف معينة محيطة بها، وهو الأمر الذي يضفي عليها ثوب الحقيقة وأنها أمر واقع فعلًا، وهي من أهم أسلحة العالم الأمني الحديث، وقد تؤدي إلى انهيار نُظم واختفاء شخصيات محورية، كما تؤثر على المجال الداخلي والخارجي لأية دولة. الشائعة أصبحت اليوم علمًا كاملًا يدرس على كافة المستويات المختلفة، ووضعت لها الأكاديميات العلمية ضوابط وأسسًا وأساليب وأصبح لها متخصصون.

وعلى ذات الجانب تقوم الأجهزة الأمنية بدراسة الشائعة باعتبارها تؤثر على الأمن القومي بل أيضا تقوم هذه الأجهزة بتخصيص أقسام لتجميع الشائعات ودراستها وفحصها. لا تكتفي الأجهزة الأمنية بتتبع الشائعة ودراستها فقط بل تقوم أيضًا في أوقات مختلفة بخلق الشائعة وإطلاقها؛ وذلك لتحقيق الآتي:

١- هدف معين وقد يكون هذا الهدف تلميع أو إلقاء الضوء على شخص معين، وعلى العكس قد يكون الهدف ما يسمى أمنيًّا بحرق هذا الشخص وهدمه تمامًا، أو حتى حول قبول الناس لأمر ما أو شخص ما لتولي منصب معين.

٢- كما قد تتواجد الشائعات في أوقات عصيبة بهدف رفع الروح المعنوية، مثلما حدث بعد حرب ١٩٦٧ وشائعة ظهور السيدة مريم، كناية عن تأييد الله للمصريين عقب النكسة.

ولابد للشائعة من ظل من الحقيقة حتى يمكن تصديقها. وعدم التأكد من صحة المعلومات بدقة يؤدي إلى الوقوع في ما يترتب على تصديق الشائعات، ومن هذا عودة الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة إلى مكة بعد أن سمعوا بإسلام قريش، ولم يتأكدوا التأكد الكافي من هذا.

الاغتيال السياسي

قامت الدول العديدة بإعداد الميزانيات السرية الكبيرة للإنفاق على هذه الوسيلة؛ بل يشار إلى أن العالم الحدث أنشأ الإدارات أو المجموعات التي تختص بهذا، تندرج جميعها ضمن جهاز الأمن السياسي على مستوى كافة الدول أو على أقل تقدير أغلبها. تتكون هذه المجموعة من أشخاص محدودين، يتمتعون بمهارات فردية عالية وإمكانات جسدية وذهنية على أرقى مستوى، يتم تدريب هذه المجموعة على كيفية استخدام الأسلحة والأسلحة البيضاء بل أيضًا السموم، تكون هذه المجموعة غير معروفة حتى لزملائهم وفقط معروفة لعدد محدود من القيادات الأمنية.

وبالرغم من تنديد أغلب الدول بهذه الوسيلة إلا أن أغلب الدول لديها هذا الأسلوب وإن كان غير معلن، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك إسرائيل التي تعتبر الاغتيال وسيلة شرعية للدفاع عن أمنها القومي وما تقوم به من عمليات تصفية لقيادة الثورة الفلسطينية، ليس فقط داخل حدودها ولكن تتعقبهم إلى خارج البلاد، وأمريكا تؤيدها في ذلك بل إنها تستهدف شخصيات قد ترى أنهم خطر على أمنها القومي، ولعل واقعة اغتيال الدكتور المشد عالم الذرة النووية أثناء عمله في بناء المفاعل العراقي خير دليل على ذلك.

والاغتيال نوعان:

أ- الاغتيال المادي: وهو المعروف بتصفية شخص جسديًّا.

ب- الاغتيال المعنوي: ولعل أبرز وسائله الشائعات، والهدف منه إزالة الشخص المقصود عن موقعه الوظيفي أو السياسي، وإجباره إما على الاستقالة أو هجر الحياة العامة عمومًا، وبذلك يكون الاغتيال قد أدى غرضه.

وقد دبرت العديد من محاولات الاغتيال للرسول ﷺ وقد اضطر الرسول ﷺ إلى استهداف بعض أعداء الإسلام والمسلمين، وكان هذا أربع مرات تقريبًا، وهذا لأن العالم تسوده نظرية قديمًا وحديثًا، وهي نظرية شرعية المعاملة بالمثل، وأعداء الإسلام خاصة من اليهود حاولوا أكثر من مرة اغتيال الرسول ﷺ.

وأيضًا كان في استهداف النبي ﷺ لهؤلاء الأعداء حقن دماء قومهم، فهؤلاء الأعداء كانوا سفهاء يدفعون قومهم إلى الحرب دفعًا؛ فاستهدافهم هو في الحقيقة رحمة بقومهم قبل أن يكون رحمة بالمسلمين. ولم تكن هذه المحاولات لانتقام شخصي أو لإشباع رغبة مثلا، كما هو واضح في مبررات كل محاولة منهم[1].

(١) الكتاب من تأليف: صادق حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠، عدد الصفحات: ٢٨٩.





إن عائلتنا تعمل في صيد البحر منذ أن تركنا (أمان الله) منذ أكثر من أربعة قرون، تعلم يا سيدي؟ لم يكن أمامنا مثل كثير من العائلات المسلمة سوى النزوح جنوبًا نحو (صولو)، بعد هزيمة (راجا سليمان) أمام (ليجاسبي) الإسباني".

رفع الشيخ الكبير المفترش الأرض جوز الهند عن فمه ليتمتم متنهدًا: "(راجا سليمان) رحمه الله". وبينما يرفع بصره نحو القمر في السماء راح يمسح بيده رغوة بيضاء صنعها شراب جوز الهند على شاربه، ثم رفع صوته قائلًا: "تعلم يا بني؟ (راجا سليمان) هُزم لأنه كان وحده.. منفردًا وحده في (أمان الله)، كما أن الإسبان كانوا أكثر استعدادًا من أول مرة قدموا فيها شواطئ عذراء ماليزيا الهادئة.. أقصد التي كانت هادئة".

أسند الشيخ ظهره إلى حشية ملونة صنعها بيده من ألياف جوز الهند، ثم نظر في عيني الشاب واستأنف حديثه: "عندما نزل الإسبان لأول مرة خُيّل لـ(ماجلان) أنه سيتمكن بسهولة من السيطرة على الأرخبيل كاملًا وتحويل السكان إلى الكاثوليكية؛ ذلك لأنه لم يلقَ مقاومة تذكر من السكان الوثنيين الذين وعد مليكهم بتاج الجزيرة مقابل الدخول في الكاثوليكية.. أغراه بتاج من أوراق شجر الموز".



ارتفعت الضحكات في الكوخ الصغير المشرف على مياه البحر، ثم استأنف الشيخ الحديث بعد أن هدأ سعاله: "فوجئ (ماجلان) بمقاومة عنيفة من السكان المسلمين، قاومه الأهالي بسهام البامبو والسيوف القصيرة.. أرادها (ماجلان) محاكم تفتيش، أضرم جنده النار في البيوت وحرقوا الأكواخ والمؤن وطاردوا النساء.. طالما حلمت -يا بني- أن أكون بين هؤلاء الأبطال من جيش (لابولابو) الذين قاوموا الأسطول الإسباني بصدور عارية وقلوب ملؤها الإيمان، طالما تخيلت (ماجلان) بصلفه وعنجهيته وهو يقول: إنني باسم المسيح أطلب منك التسليم ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد!

وطالما رنت في أذني كلمات (لابولابو) الواثقة: أن الدين لله، وأن الإله الذي أعبده هو إله جميع البشر على اختلاف ألوانهم.

من أذِن لماجلان أن يتكلم باسم المسيح؟ من أخبره أن للبيض أولوية في حكم أرض الله؟ خلق الله كلهم سواء. طالما تمنيت يا (سيف الدين) أن أكون بين هؤلاء الذين غاصت سيقانهم في المياه ووقفوا بثبات الجبال الراسخات يقاتلون الإسبان، طالما ارتسم في مخيلتي رمح (لابولابو) وهو يُكبر ليضرب عنق (ماجلان) بمهارة منقطعة النظير، متفاديًا درعه الثقيل، ليتراجع (ماجلان) خطوات للوراء وتصطك ساقاه المغمورتان في الماء، ثم يعاجله (لابولابو) بضربة سيف على رأسه". هوى الشيخ بيده ليضرب الأرض في حماسة تطايرت لأجلها الرمال الناعمة.. ثم عاد فقال: "أتعلم؟ كان (لابولابو) ذكيًّا حين رفض تسليم جثمان (ماجلان) للإسبان المنهزمين الذين نجا منهم ثمانية عشر مقاتل فقط غادروا في سفينة واحدة؛ كما كان بالغ الذكاء حين طلب العون من السلاطين حوله".

هز (سيف الدين) رأسه موافقًا: "نعم، كان من فضل الله على (لابولابو) أن الممالك حوله كانت لسلاطين مسلمين استجابوا لنداء الجهاد، بينما لم ينعم (راجا سليمان) -رحمه الله- بهذه المزية.. كان جدي (سليمان) منفردًا وحده في الشمال في (أمان الله) وكان الإسبان قد أصبحوا أكثر شراسة يحدوهم الانتقام، على مدى خمسين عامًا بعد هزيمة (ماجلان) في معركة (ماكتنان) جرد الإسبان أربع حملات صليبية متتابعة أبيدت جميعها؛ لأن الريح حملتهم نحو الجنوب في مناطق المسلمين الذين قاوموهم بشراسة، حيث أعلن الإسبان بصراحة هدفهم من تلك الحملات.. توسيع رقعة مملكتهم، وتنصير السكان.

حاول الشيخ بصعوبة الاعتدال واقفًا، وقال وهو يشير بإصبعه نحو (سيف الدين) الجالس على الأرض: "لم يفِ الإسبان بوعدهم لسليمان.. وعده (ليجاسبي) بحسن المعاملة والإبقاء على سلطته السياسية والملكية، ثم ما لبثوا أن نقضوا العهد وقتلوه واستولوا على (أمان الله) وسموها (مانيلا)، ثم أطلقوا على ماليزيا العذراء وجزرها ال٧٠٠ اسم (الفلبين) نسبة لمليكهم (فيليب الثاني)، الذي أقام في بلادنا محاكم تفتيش تابعة لمحكمة مكسيكو في المكسيك. كان نضالًا مريرًا يا (سيف الدين)! تتبعوا المسلمين، وقضوا عليهم، وهدموا المساجد، لم يكن أمامنا سوى الاحتماء في الغابات، ولكن صدور الرجال كانت تغلي! كيف يهنأوا بعيش والمسلمون يطاردون لأجل إسلامهم؟ كانت سفن المسلمين تهاجم السفن الإسبانية وتأسر الإسبان وتبيعهم في سوق الرقيق انتقامًا لما كانوا يفعلونه بالمسلمين.. رقيق أبيض!".

نهض (سيف الدين) ليساعد الشيخ على الحركة.. ووضع يده تحت ذراعه ثم سأله: "إلى أين يا سيدي؟" أجاب الشيخ: "إلى مصلاي.. ركعتان قبل الفجر يا بني، أدعو الله فيهما أن يقوي شوكة المسلمين ويهيء لهم أمر رشد ويبصرهم أن الأمريكان كالإسبان بل أسوأ.. أربعة قرون كاملة قضيناها تحت حكم الإسبان سامونا فيها سوء العذاب وقاومناهم بالنفس قبل المال.. منذ أوائل القرن السادس عشر ونحن ندافع عن ديننا حتى يئس الإسبان من السيطرة على مناطق المسلمين المورو، واستقر لهم المقام في مناطق المتنصرين الباريوز، أو الوثنيين الذين تمسكوا بوثنيتهم وتركوا الحكم للإسبان، أما المسلمون فقد كانوا تحت حكم أربع سلطنات مسلمة يحاصرهم الإسبان والوثنيون..

والحق أن المسلمين خارج بلادنا لم يتركونا وحدنا، وها أنت ترى بنفسك.. اختلطت أعراقنا بأهلنا في الشام ومصر، اللتين أرسلتا العلماء والمشايخ ليساعدونا في الحفاظ على هويتنا الإسلامية، التي هددها وجود الإنجليز في ماليزيا، والهولنديون في جزر الهند الشرقية، حتى جيراننا في بورنيو وأتشيه استمروا في إرسال الدعاة رغم التضييق، وتمكنا بفضل الله من الحفاظ على هويتنا وديننا هنا في الجنوب.. قاومنا رغم الحصار، وكل ما أرجوه من الله الآن أن يبصر أهلنا بغدر الأمريكان".

سكت الشيخ برهة ثم قال بحدة: "سيف الدين! سيضيع الوقت في الحديث! تعال ساعدني لأتوضأ".

مرَّ الوقت في المسجد هادئًا تغشى الناس فيه الطمأنينة، ووقف الفتى سيف الدين في المحراب إمامًا، يسري صوته عذبًا في أرجاء المكان.. تحلَّق المصلون بعد الصلاة حوله، بينما بدا الشيخ متكئًا على ذراعه في نهاية المسجد، ولكنه كان يسمع بوضوح صوت سيف الدين وهو يقصُّ:

"استمرت المقاومة الإسلامية على الرغم من أن الإسبان قد ارتكبوا الجرائم والمذابح الوحشية كالتي ارتكبوها في الأندلس، ولم يستطع التفوق العددي الإسباني، ولا قوة نظامهم الحربي ولا أسلحتهم الحديثة أن تحطم مقاومة المسلمين، إذ إن الأسلحة لا تقف أمام الإيمان، والاستعداد لا يكون بالأسلحة فقط، وإنما بالروح المعنوية التي لا مصدر لها إلا الإيمان، ولا تقاتل الشعوب إلا بعقيدتها ولا تنتصر إلا بإيمانها، والمسلم يرفض الخضوع للمغتصب، ولمن لا يدين بدين الحق، مما جعل المقاومة الإسلامية عنيفة وبقيت سلطنات المسلمين مستقلة في الجنوب[١]".

سياسة إسبانيا في الحكم بالحديد والنار وفرض هويتهم ولغتهم على السكان =وحَّد السكان من كل الأعراق والأديان ضدهم، واعتبرهم السكان جميعًا عدوًّا مشتركًا، اشتعلت ضده الثورة مرتين، وقد سمعنا جميعنا عن انسحاب الحاكم الإسباني (جوينالدو) إلى هونج كونج عام ١٨٩٧ كنتيجة لإفراطهم في العنف، رغم نجاحهم في القضاء على الثورة الأخيرة إلا أن هناك منظمات سرية تتواصل مع الأمريكان للمساعدة في طرد الإسبان، وما أرى إلا إنهم كما قال الله: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]



وهذا ما أخشاه.. أن يمكن الأمريكييون من الحكم هنا وهم جزارون؛ فقد (أشرف الرئيس جاكسون بنفسه على سلخ ٨٠٠ من هنود الكريك، واقترح أن ترسَل قطع من تلك الجثث هدايا إلى السيدات الارستقراطيات في تينيسي!)[٢] لقد (سلخوا المئات من فروات الرؤوس ورفعوها في دار الأوبرا ابتهاجًا!)[٣]".

لاحظ سيف الدين على وجوه من حوله شيئًا من الخوف، فاستدرك قائلًا: "لا أريد أن أبث الذعر في قلوبكم؛ ولكنهم ليسوا بالتأكيد الحليف المناسب، خاصة بعد ضعف مقاومة الإسبان واقتراب هزيمتهم أمام الأمريكيين؛ إن الأميريكيين كالإسبان يظنون أنفسهم حملة الحضارة ويحملون شعار (مدّنوهم بالبندقية)! ومع أن هدفهم واحد إلا إنهم كما ترون يضرب بعضهم بعضًا، همج في مطلع القرن العشرين، ويبدو أن الأمر لن".

(١) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج٢٢ ص١١٣، ط: المكتب الإسلامي، عام ١٤٢١.
(٢) منير العكش، أمريكا والإبادات الجماعية، (ص٨١)، ط: دار رياض الريس، ١٤٢٣.
(٣) السابق، (ص٨٧).

قطع الحديث صوت أنهكه الركض: "سيدي سيف الدين.. سيدي سيف الدين". قفز صاحب الصوت وعينه فيها مخايل الفزع الظاهر أيضًا في صوته، بينما يعلو صدره ويهبط وقال: "أخبار من مانيلا.. باع الإسبان الفلبين للأمريكيين مقابل خمسة ملايين دولار فقط".

استرجع سيف الدين ثم قال: "يبيعوننا كالمتاع.. إخواني! لتستمر المقاومة إذن.. لن تكون عذراء ماليزيا ولاية أميريكية، الاحتلال واحد، وسيدعم الأمريكيون النصارى ويضيقون حصارهم علينا".

تمامًا كما توقع سيف الدين؛ بعد أن انتهت أمريكا من الإسبان عام ١٩٠٠ من الميلاد استدارت لتتحكم في الثوار، حاولوا تنصير المسلمين وأشعلوا حربًا عرفت بحرب الجراثيم؛ حوّلوا السكان فيها لفئران تجارب يحقنونهم بالطاعون والجدري والكوليرا بغرض الأبحاث العلمية، قتل في هذه الحرب وحدها أكثر من ألفي ضحية. واستمرت مقاومة سكان الأرخبيل للأمريكيين الذين ضموا الجنوب إلى الشمال قبل أن يمنحوا البلاد الاستقلال عام ١٩٤٦، ما أشعر سكان الجنوب المسلم بالغبن، وهم الذين تمتعوا باستقلال إداري في عهد الاحتلال الإسباني.

ورغم إعلان الولايات المتحدة استقلال الفلبين؛ فقد استمرت في تولي شئون الدفاع والشئون الخارجية ليستمر تحكمها في البلاد. وعند قيام الحرب العالمية الثانية انتزعت اليابان الفلبين من أيدي الأمريكيين ليطردها السكان من البلاد في مواجهات كانت أشبه بحرب العصابات.

ستة وأربعون عامًا مرت منذ بداية الاحتلال الأميريكي حتى إعلانهم الاستقلال الصوري للبلاد عام ١٩٤٦، ستة وأربعون عامًا أكسبت (سيف الدين) خبرة في جهاد اللسان وجهاد السنان معًا، تمامًا كما أكسبته غرةً بيضاء كلحيته الخفيفة. لم يكن (سيف الدين) ليترك الجهاد ضد مواطنيه صنيعة الأمريكان؛ فالشيخ الذي عركته الحياة وجاهد الأمريكان كما جاهد قبلهم الإسبان علم أن المحتل لن يتخلى عن (عذراء ماليزيا)، ولن يسمح ببقاء أية نظام في الحكم ما لم يضمن أنه قادر على التحكم فيه بصورة تامة.

جلس الشيخ سيف الدين أرضًا ونظر إلى القمر في السماء، قبل أن يسدد بصره نحو الشاب الجالس أمامه ،

ثم قال: "السماء ذاتها والقمر ذاته لم يتغير.. البحر بأمواجه كما هو.. من يصدق أن هذه السلطنة المسلمة التي حكمت هذه البلاد قد محيت من الوجود؟ إن ما حدث في عذراء ماليزيا يا (إبراهيم) ومن قبلها الأندلس ليس ببعيد عن أية دولة مسلمة تحكمها عرائس خشبية يحركها المحتل، الذي يدعي أنه وهبهم الحرية بينما يسلبهم الحياة، وها هي الحكومة النصرانية تحارب المسلمين وتتعمد تهميشهم بل وتنصيرهم بالقوة وتمنع ممارسة الشعائر الإسلامية ؛ بل ويقصرون مناصب الدولة على طلبة الإرساليات، وتشكلت الميليشيات لتطرد المسلمين من منازلهم وتملك الأرض للنصارى وتقتل السكان من المسلمين الذين وصل عدد شهدائهم إلى ثلاثين ألف شهيد، وعندما قاوم المسلمون وصفوا بالإرهابيين".

تحامل الشيخ على نفسه ووقف مشيرًا للشاب أمامه: "حان دوركم يا إبراهيم .. أكملوا ما بدأه (لابولابو) و(راجا سليمان)، ولا تنسوا أن المحتل يغير زيه ولا يغير عقيدته! لتستمر المقاومة .. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

من الذي باع الأرض؟

محمد على، وفتح الشام .. لليهود!

نور عبد الرحمن

يقول التاريخ والواقع الحي إن الذين باعوا الأرض، صف طويل، لم يبلغ نهايته بعد. ولكننا نستطيع أن نرصد مقدمته، التي يتصدرها "محمد علي". وهى الصدارة التي أحرزها بحملته على الشام، وأُطلق عليها "فتح الشام"، وما هو إلا فتحها لليهود، تستقبل طلائعهم الزاحفة من شتات الأرض!



حملة "محمد علي" على الشام، لحظة فارقة فى تاريخ فلسطين، ما بعدها ليس كما قبلها. استهلها ولده، ورأس جيشه "إبراهيم باشا"، وحاميته بعدها على أبواب القدس، بإصداره أمرًا إلى الخاصة والعامة من أهل القدس الشريف؛ برفع كافة العوائد، والمرتبات، والأغفار التي كانت تُجبى من طوائف المسيحيين، وطائفة اليهود. مع تهديد صارم لكل من يخالف الأمر[1]

وكان الأمر الذى أُذيع به فى ربوع المدينة المقدسة، نذيرًا لعهد جديد، وأول الغيث فى سلسلة سياسات غير مسبوقة تجاه طوائف المسيحيين واليهود.

---

(١) أسد رستم: الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي، ج١، (الجامعة الأمريكية فى بيروت، منشورات كلية العلوم والآداب، بيروت، ١٩٣٠م)، ص: ٨٧-٨٩، ص: ١٣١-١٣٢.

ففى إعادته تنظيم الجهاز الإداري للدولة؛ استحدث "الباشا" مجلسًا محليًّا فى المدن الرئيسية، يضم ممثلاً عن كل طائفة، عُهد إليهم بإدارة شئون المدينة. فكان "مجلس شورى مدينة القدس" يتألف في عضويته من ١٤ عضوًا، بينهم: الخواجة "رونة" وكيلاً عن طائفة اليهود، و"يوسف" وكيلًا عن طائفة الإفرنج، وياقوت حاسر من طائفة الأرمن(١). أما خزينة القدس الشريف، فقد عُهد بها إلى الخواجة "أنطوان أيوب"(٢)، "الشخصية الأولى بعد شريف باشا، وهو مسيحي كُرم بلقب "بيه"، وصار يدير بصورة مستقلة عن الباشا الشؤون الاقتصادية لكل الباشالكات السورية"(٣).

وعن القضاء، يقول "بازيلي": "أُمرت السلطات المدنية بأن تتجنب قدر الإمكان حل القضايا المتنازع عليها بين المسيحيين والمسلمين فى المحكمة الدينية، وتراعى العدل إزاء المواطنين بلا تمييز بين الأديان"(٤). فتم "حصر صلاحية المحاكم الشرعية فى الأحوال الشخصية فقط"(٥).

فكيف والحال كذلك، بمبادرة "محمد علي" تدليل طوائف المسيحيين واليهود، ليقربوه إلى حكومات أوروبا زُلفى، طامعًا فى دعمهم توسعاته الطموحة، على حساب الدولة العثمانية؛ ألا يغتنم اليهود، والحكومات الغربية مِن ورائهم الأوضاع الجديدة، التي سبقت أحلامهم، فهبوا كى يلاحقوها!

ولما كان الحال كما يصفه "بازيلي": "إنه لأمر لم يُعهد له نظير فى الإمبراطورية العثمانية أن يُمنح المسيحيون الحرية لتجديد معابدهم وأديرتهم فى كل مكان، وحتى لبناء الجديد منها دون أن يشتروا شهادات من المحكمة الإسلامية (أعلاما) بضرورة أعمال التصليح والبناء، ولا إذنًا من السلطات المحلية"(٦).

فقد بدأ اليهود سعيهم الحثيث بطلبات ترميم كُنُسهم ومعابدهم(٧) .. فإحياء الخَرِب منها(٨) .. فاستحداث أُخر(٩) ... وطالبوا بزيادة مبانيهم فى القدس الشريف(١٠)، أما "الأشكناز" الغربيون النازحون، فقد عمدوا إلى إلى تعزيز وجودهم في المدينة المقدسة، وتوطين أنفسهم بطلبهم الترخيص لهم بشراء الأملاك، ، والأراضي الزراعية،

---

(١) رستم: الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي، ج٥، (بيروت، ١٩٣٣)، ص: ٢٢٤.
(٢) المرجع السابق، ص: ٢٢٦.
(٣) قسطنطين بازيلى، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، (الترجمة العربية - دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩م)، ص: ١٦٤.
(٤) السابق، ص: ١٦٣.
(٥) إلياس شوفاني، الموجز فى تاريخ فلسطين السياسي، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٦م)، ص: ٢٦٦.
(٦) بازيلى، ص: ١٦٢.
(٧) رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ج٣، (بيروت، ١٩٤٢م)، ص: ١٣٤-١٣٥، وثيقة رقم ٤٦٤١.
(٨) رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ج٤، (بيروت، ١٩٤٣)، ص: ٢٩٦-٢٩٨، وثيقة رقم ٦٢٠٦.
(٩) السابق، ص: ٣٨٥، وثيقة رقم ٦٣٤١.
(١٠) رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ج٤، ص: ٢٩٤، وثيقة رقم ٦٢٠٥.

وتعاطي الحرث والزرع، وتعاطى البيع والشراء، وبيع الأغنام والأبقار، وتعاطي مصابن ومعاصر(١).

ولم يقف سعيهم عند حدود معابدهم فقط، بل تجاوز إلى ما للمسلمين من مقدسات.. فقد سُمح لهم بزيارة قبر النبي يعقوب بالمسجد الإبراهيمي(٢).

وطمعوا فى تبليط ساحة البراق، من أجل تمهيد موطئ قدم لهم فى المكان الشريف(٣). وكان من بين وثائق الواقعة، وثيقة عجيبة، يقول نصها: "فرمان شريف سر عسكري صادر فى ١٤ شوال سنة ٥٥ مضمونه الشريف: وردت ورقة من ممتا قونسلوس دولة الإنجليز ويذكر أن واحدًا من الرعايا كان حاصل له لطف ونذر على نفسه أن يبلط زقاق البراق ويستدعى رخصة بذلك، فيلزم تعطوا إلى الرعايا المذكورة الرخصة بتبليط الزقاق المذكور"(٤). فلأجل اليهودي الذي "حاصل له لطف" ونَذَر أن يبلط زقاق البراق؛ يطالب قنصل الإنجليز بإعطاء اليهود الرخصة بتبليط الزقاق الواقع ضمن وقف إسلامي!!



أما الطامة الكبرى.. فكانت انتهاك المسجد الأقصى، فى مشهد متكرر، يرويه "بازيلي"، ويراه إهانة من "الباشا" لشعور الشعب الديني: "وسُمح للكثير من الرحالة الأوربيين بزيارة مسجد عمر فى القدس، الذى يُعتبر قدس الإسلام الثاني بعد حرم مكة. لا شي كان فى وسعه أن يثير وساوس أشد لدى سكان القدس المتعصبين. لقد نشج خدم مسجد عمر المسنّون لهذا الانتهاك الذي لم يعهد له نظير من قبل فى العالم الإسلامي، وفى كل مرة عند زيارة الأجانب للمسجد كان على السلطات المحلية أن تحيط نفسها وضيوفها بفصيلة عسكرية لدرء فورة التعصب فى المشاهدين"(٥).

(١) رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي، ج٣، (بيروت، ١٩٣٤)، ص: ٦٥-٦٦.
(٢) رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ج٢، (بيروت، ١٩٤١)، ص: ٣٢٦، وثيقة رقم ٣٠١٥.
(٣) رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي، ج٥، ص: ٧٨.
(٤) رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ج٤، ص٢٩٤-٢٩٦، وثيقة رقم ٦٢٠٥.
(٥) بازيلى، ص: ١٦٢.



" بازيلي"، الذى يصحبنا منذ بداية المقال، هو " قسطنطين بازيلي"، قنصل روسيا فى سوريا، الذى تولى مهام عمله إبان حكم "محمد علي" للشام، وما تلاه من سنوات. وهو شاهد العيان المعاصر، بل والمشارك أحيانًا فى أحداث هذه الفترة، تجده في كتابه، إذا ما ذكر سياسة الباشا أو ولده تجاه المسيحيين أو اليهود، وصفها بـ "التسامح الديني"، أما سياستهما تجاه المسلمين، فإنه يكرر فى أكثر من موضع، بأنها "إهانة الشعور الديني"!

غير أن هذا "التسامح الديني" لم يكن ليغره، بل يقول: "ولكن ننوه بأن تسامح إبراهيم باشا الديني نفسه، عكره إلحاد راسخ، ماجن، فقد كان هو نفسه وشريف باشا، وعلى أثرهما كل أكابر الأعيان المصريين تقريبا، يكنون فى أعماق نفوسهم احتقارًا شديدا للقبيلة العربية كلها، وبدوسهم على أوهامها داسوا فى الوقت نفسه قوانين الإسلام الجذرية. كان إبراهيم يعب الشمبانيا علانية فى دمشق، وفى كل مدن سوريا... لم يكن تهتكه خافيًا على الشعب... نادرًا ما كان يظهر فى المسجد، ولم يكن فى ساعات الصلاة يقوم بالوضوء الشرعي، ولم يكن يصوم رمضان"[(١)].

فكان للتسامح الديني وجهه الآخر مع المسلمين، فهؤلاء كان نصيبهم: ضريبة الرأس (الفردة)، التى فُرضت على الذكور من سن ١٤ فما فوق، والتجنيد الإلزامي؛ الذي طال عُشر الملزمين بضريبة الفردة، وأعمال السخرة فى مشاريع الحكومة، وسحب الأسلحة من أيدى الناس[(٢)].

فعن الضرائب يقول "بازيلي": "ولكى ترغم الحكومة السكان والمجتمعات على مراقبة بعضهم البعض أدخلت التكافل والتضامن فى نظام الضرائب، فصارت تحصل إتاوات الفارين وضرائبهم المتأخرة من المجتمع الذي كانوا ينتسبون إليه، وتفرض ضرائب القرية المهجورة على الناحية بأسرها"[(٣)].

أما التجنيد الإجباري: "وبسبب العنف وانعدام أية قاعدة أو نظام للتجنيد؛ كانت القيادات المحلية: العسكرية والمدنية، تتلقى أمرًا سريًّا بتقديم عدد معين من المجندين. وكان عليها تحيُن المناسبة واختيار الوسائل لتصيد العدد المطلوب من الناس فى الأسواق أو المساجد أو فى خلال أعمال الحقول. وفي أيام الجمعة، حينما يجتمع الناس فى المسجد، كانت فصائل القوات تطوق المسجد، ولا تسمح إلا للشيوخ والصغار بالخروج وتأخذ كل الصالحين لخدمة الصف"[(٤)].

---

(١) بازيلى، ص: ١٦٤.
(٢) شوفاني، ص: ٢٦٦ – ٢٦٧.
(٣) بازيلى، ص: ١٦١.
(٤) بازيلى، ص: ١٦١.

فكان من جراء ذلك أن "كان المسلمون يحسدون المسيحيين واليهود على قسمتهم، إذ أن إعفاءهم من الخدمة تحت رايات المؤمنين قد أصبح -عوضًا عن الإذلال- ميزة عظيمة بالنسبة إليهم"(١).

وبلغ الأمر أن "قد أهين المسلمون المساكين، سكان المدن، فى شعورهم الديني بحيث أخذ الناس ذوو المقام النبيل يعملون قواسين، وخدمًا، وسواسًا عند القناصل الأوربيين، وحتى عند وكلائهم وتراجمهم من أتباع السلطان، ومن الرعايا المحتقرين؛ ليتجنبوا خدمة الصف إستنادًا إلى المعاهدات التي تضمن حصانة العاملين فى القنصليات"(٢).

ولنا بعد استعراض هذه السياسة، ذات الوجهين، أن ندرك بلا شك نتائجها، وما أحدثته من أثر في التركيب الديموغرافي ..

فيما قبل ثلاثينات القرن التاسع عشر (حتى عام ١٨٣١، وبداية حكم "محمد علي") قاوم العثمانيون، والسكان المسلمون المحليون الاختراق الغربي واليهودي للقدس؛ ففى بداية القرن التاسع عشر كانت هناك سياسة عامة تُقيد الاستيطان اليهودي بالقدس بحدود ٢٠٠٠ من اليهود. إلى جانب ذلك، كان هناك حظر على استيطان اليهود الغربيين (أشكناز) فى المدينة، حتى رُفع هذا الحظر عام ١٨١٦. أما الزيادة الدراماتيكية فى الهجرة اليهودية إلى القدس خلال ثلاثينات القرن التاسع عشر (فترة حكم محمد على)، فترجع إلى عوامل سياسية مشجعة، مع تحسن أحوالهم بسبب حماية القناصل الأوروبيين(٣).

بينما كان "محمد علي" (١٨٣٢ - ١٨٤٠) أكثر مرونة إزاء الهجرة اليهودية للقدس، مما رفع تعداد اليهود في المدينة بشكل كبير، فإن سياسته تجاه المسلمين قد دفعتهم إلى مغادرتها، كما كان للثورة على هذه السياسة (١٨٣٤) تأثيرها على تعداد المسلمين كذلك(٤). "لم يفر المجندون وحدهم، بل هرب ألوف الناس من الجندية مسبقًا إلى البدو فى الصحراء، وإلى ديار بكر والأناضول وجزيرة قبرص.".. "لقد فر ما يربو على ١٠٠ ألف سوري من قسوة الحكم المصري."(٥)

(١) بازيلى، ص: ١٦٢.
(٢) بازيلى، ص: ١٦٢.
(٣) Muthanna S. Ammus, Jerusalem in the Arab Israeli Conflict 1967-1998 (Centre for Middle Eastern and Islamic Studies University of Durham, 1999), P: 14-15.
(٤) السابق، ص: ١٣.
(٥) بازيلى، ص: ١٦١.

في أوائل القرن التاسع عشر، كان مجموع السكان حوالي ٨,٧٥٠ نسمة، منهم: ٤,٠٠٠ مسلم، و ٢,٧٥٠ مسيحي، و ٢,٠٠٠ يهودي. وبحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر، كان عدد سكانها ٥,٣٥٠ مسلم، و ٣,٦٥٠ مسيحيا و ٦,٠٠٠ يهودي، أي ما مجموعه ١٥,٠٠٠ نسمة[١].

وقد فتح "محمد علي" الباب لأول مرة أمام: النفوذ الغربي (القنصليات، والإرساليات التبشيرية)؛ وأمام الاستيطان اليهودي فى الأرض المقدسة! "فى سنة ١٨٣٨م سمح لبريطانيا بفتح قنصلية دائمة لها فى القدس، الأمر الذي شكل سابقة فى العرف القائم، إذ كانت القنصليات تقام فى المدن الساحلية، وتعنى بالشؤون التجارية. فى الواقع، ومنذ زمن طويل، كانت القنصليات قد تراجعت فى عددها وأهميتها مع تراجع الأهمية التجارية لمدن الساحل السوري، وراح رجال محليون يتولون المهمة، أما أيام إبراهيم باشا، وخصوصًا بعد انسحابه من البلاد، فقد راحت القنصليات تؤدى فى الأساس دورًا سياسيًا"[٢].

وقنصلية بريطانيا على وجه الخصوص كانت الراعي الرسمي لليهود فى فلسطين، وتحمل على عاتقها مسئولية إقامة دولة لهم فى فلسطين. "وعلى نقيض سابقيه من الباشوات، سمح إبراهيم للبعثات التبشيرية المسيحية بممارسة نشاطها بحرية كبيرة، ومنحها الإذن بإقامة مؤسسات تعليمية وثقافية"[٣]. وكان تدشين أول بعثة تبشيرية للكنيسة الإنجليزية البروتستانتية بالقدس عام ١٨٣٩م[٤].

وقد أحيت سياسات "محمد علي" فى فلسطين آمال الثري اليهودي الإنجليزي، وزعيم الجماعة اليهودية فى إنجلترا، والذي دشن أول مستوطنة لليهود فى فلسطين، سير "موسى مونتفيوري"[٥]، بجمع اليهود فى أرض (الأجداد). كان للسير "مونتفيوري" خططته، التي أدلى بتفاصيلها إلى صحيفة كانت تصدر فى مدينة "صفد"[٦]، ودونها فى مذكراته بذات التاريخ ٢٤ مايو سنة ١٨٣٩، جاء فيها: "إنني على ثقة من إنه لو قُدر لخطتي النجاح، فإنها سوف تجلب السعادة والرخاء للأرض المقدسة. وكخطوة أولى، سوف أطلب إلى محمد علي منحي أرضًا لمدة خمسين عامًا؛ مائة أو مائتي قرية؛ على أن أمنحه إيجارًا يزيد سنويًا بمقدار ١٠ إلى ٢٠ بالمائة، تُدفع كاملة سنويًا في الإسكندرية، ولكن الأرض والقرى يجب أن تكون طيلة هذه الفترة، حرة من كل ضريبة سواء للباشا أو حكام المقاطعات المختلفة؛ مع حرية تصريف المنتجات في أى مكان في العالم. هذه المنحة التي حصلت عليها،

(١) Muthanna S. Ammus, P: 13 26-

(٢) شوفاني، ص: ٢٦٥.

(٣) السابق، ص: ٢٦٥.

(٤) .Laura Robson, Minorities and the Modern Arab World: New Perspectives, (Syracuse University Press, 2016), P: 64 29-

(٥) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٦، (دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م)، ص: ١٧٧.

(٦) ٣١- ايلى ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، (مطبعة النظام بمصر، القاهرة، ١٩٣٤م) ص: ١٤٥-١٤٧.

سوف أرجو من السماء، لدى عودتي إلى إنجلترا، أن تكون شركة لزراعة الأرض، وأن تشجيع إخوتنا في أوروبا على العودة إلى فلسطين"(١).

ثم.. "وصل الإسكندرية فى ١٣ يوليو، واستقبله الباشا بهدوء، واستمع إليه باهتمام وهو يكشف له عن مخططاته. ووعد محمد على بكل مساعدة، وأعرب عن حرصه على تحسين أحوال رعاياه اليهود، وقال: "سوف يكون لك أي أرض متاحة للبيع في سوريا، وأية أرض أخرى للسلطان يُبيحها لك، لك أن تختار أي شخص لكي أُعينه حاكمًا لأية مقاطعة ريفية فى الأرض المقدسة، وسأبذل كل ما في وسعي لدعم مساعيكم الجديرة بالثناء". كما أعطى تعليمات لوزير المالية "بوغوص بك" بإثبات هذه التأكيدات كتابةً"(٢) (٣).

"ثم تحدث عن إنشاء بنوك مساهمة برأس مال قدره مليون جنيه إسترليني، مع القدرة على زيادته، إذا لزم الأمر. عندئذ برقت عيناه وبدا سعيدًا، وأكد لي أن البنك يجب أن يكون تحت حمايته، وإنه بالتأكيد سوف يكون سعيدًا لرؤية هذا البنك قائمًا"(٤).

وهى رواية سجلها "مونتفيوري" فى مذكراته، ونشرتها الصحف، وأوردها "ايلى ليفى أبو عسل" فى كتابه "يقظة العالم اليهودي"، الذى طُبع بمطبعة "النظام" فى مصر عام ١٩٣٤، تتصدرها صورة الملك "فؤاد"!

ولما أُجبر "محمد علي" على الانسحاب من الشام، بأمر ممن باع لهم الأرض، وعلى رأسهم إنجلترا؛ فإن الأمر لم يعد أبدًا لما كان عليه من قبل.

بشهادة القنصل الروسي مرة أخرى: "فى كانون الثاني (يناير) عام ١٨٤١ صدرت بإلحاح من البعثة الروسية فى القسطنطينية فرمانات تنص على حماية ورعاية المسيحيين السوريين، مع تأكيد تلك الامتيازات التي تمتعت بها الكنيسة تحت الحكم المصري، ولا سيما فى القدس، ومنعت أية غرامة تفرض على الأديرة والحجاج... ومنذ ذلك الحين لم يتوقف فى سورية تدخل الدول الكبرى فى شؤون الإدارة مهما كان معارضًا لنفوذ السلطان"(٥).

فكان حكم "محمد علي" للشام، على قصره، قد أحدث ثقوبًا فى قلب العالم الإسلامي، اتسعت على الراتق من بعده، وأعجزته وهو.. "الرجل المريض".

---

(١) L. Loewe (ed.) Diaries of Sir Moses and Lady Motefiore, (London, 1890) I, P: 167

(٢) .L. Wolf, Sir Moses Motefiore, A Centennial Biography, (New York, 1885), P: 69

(٣) ايلى ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، (مطبعة النظام بمصر، القاهرة، ١٩٣٤م)، ص: ١٥٠.

(٤) L. Loewe (ed.) Diaries of Sir Moses and Lady Motefiore, (London, 1890) I, P: 199

(٥) بازيلى، ص: ١٦٢.



وا أقصاه!

كلمة مدير التحرير

كل كلمة تقال بدون سيف مسلول مشهور في وجه الصهاينة لن تجدي يا أقصى!

كل صيحة أو هيعة دون فعل دام لن تغني يا أقصى!

جاء اليوم الذي يُغلق فيه المسجد الأقصى والصهاينة العرب من الحكام والأمراء يقفون متفرجين، والشعوب لاهية منشغلة بمباريات كرة القدم وجديد الأفلام والمسلسلات!

اعتبرها كلمة حماسية أو انشغل بتقييم الكاتب أو التبرير لنفسك.. لكن ستبقى الحقيقة المجردة ساطعة.. أبصرها من أبصرها وعمي عنها من عمي -أن الحل الأول والأوحد والأشمل لتحرير المسجد الأقصى هو المقاومة ثم المقاومة ثم المقاومة.

وتحرير الأقصى يبدأ من القاهرة والشام وبغداد وغيرها من الأصقاع التي يحتلها من هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا وما هم إلا شياطين في جثامين إنس.

كل جهد دعوي أو علمي أو مقاوِم لا يضع تحرير الأقصى نصب عينيه فهو هباء منثور، ومحض هراء؛ فهذه هي قضيتنا الأولى والأخيرة.

هذا معيار تقييم الجماعات وكل مدعي التدين والبذل للدين، خاصة هؤلاء الآكلون بدينهم والمتاجرون بكلماتهم عن الله ورسوله، وأولياء الصهاينة على مرمى حجر منهم يعذبون المسلمين ويقتلونهم وهؤلاء المزيفون يسبحون بحمد حكامهم!

وأخيرًا.. لا أقول اعذرنا يا أقصى ولكني أقول إنا لله وإنا لله راجعون على موات قلوبنا وغيرتنا على ديننا.